
الأيام
١
طه حسين

طه حسين



١



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

١

لا يذكُر لهذا اليوم اسماً ، ولا يستطيع أن يَضعَه حيثُ وضعه الله من الشهر والسنة ، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتاً بعينه ، وإنما يُقرِّب ذلك تقريباً .

وأكبرُ ظنِّه أنّ هذا الوقتَ كان يَقعُ من ذلك اليوم فى فَجْره أو فى عِشائه . يُرَجِّح ذلك لأنه يذكرُ أنّ وجهه تَلقَّى فى ذلك الوقت هواءً فيه شىءٌ من البَرْد الخفيف الذى لم تَذْهَبْ به حرارةُ الشمس . ويُرَجِّح ذلك لأنه على جهله حقيقةَ النور والظُّلْمة ، يكاد يذكُر أنه تلقَّى حين خرج من البيت نُوراً هادئاً خفيفاً لطيفاً كأنّ الظلمة تَغْشَى[1] بعض حَواشيه . ثم يُرَجِّح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تَلَقَّى هذا الهواءَ وهذا الضياءَ لم يُؤْنِسْ[2] من حوله حركةَ يَقَظةٍ قوية ، وإنما آنسَ

---

(١) تغشى : تغطى .   (٢) آنس : أبصر .

حركةً مستيقظةً من نومٍ أو مقبلةً عليه . وإذا كان قد بَقِىَ ، له من هذا الوقت ذِكْرَى واضحةٌ بينةٌ لا سبيلَ إلى الشك فيها ، فإنما هى ذكرى هذا السِّياج[1] الذى كان يقوم أمامه من القَصَب[2] ، والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خُطُواتٌ قِصارٌ . هو يذكر هذا السِّياج كأنه رآه أمسِ . يذكر أنّ قَصَبَ هذا السياج كان أطولَ من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطّاه إلى ما وراءه . ويذكر أنّ قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ[3] فى ثناياه . ويذكر أنّ قصبَ هذا السِّياج كان يمتدّ من شِماله إلى حيثُ لا يعلم له نهايةً ، وكان يمتدّ عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية . وكان آخرُ الدنيا من هذه الناحية قريباً ؛ فقد كانت تنتهى إلى قَناةٍ عَرَفها حين تقدّمتْ به السِّنُّ ، وكان لها فى حياته — أو قُلْ فى خياله — تأثيرٌ عظيم .

---

(١) السياج : ما يحيط بالشىء من خشب أو حديد أو شجر أو بناء .

(٢) القصب هنا : ضرب من النبت ذو كعوب جوفاء ، كانت تتخذ منه الأقلام ، ينبت على شواطىء الأنهر والترع .

(٣) ينسل هنا : ينفذ . وأثناء الشىء : تضاعيفه ، الواحد ثنى ، بالكسر .

يذكر هذا كله ، ويذكر أنّه كان يحسُد الأرانبَ التى كانت تخرج من الدار كما يخرُج منها ، وتتخطّى السياج وثباً من فوقه ، أو انسياباً[1] بين قَصَبه ، إلى حيثُ تقْرِضُ[2] ما كان وراءه من نَبْتٍ أخضرَ ، يَذْكُر منه الكُرُنْبَ خاصَّةً .

ثم يذكر أنه كان يحبّ الخروجَ من الدار إذا غرَبَتِ الشمسُ وتعشّى الناسُ ، فيعتمدُ على قصب هذا السِّياج مفكِّراً مُغرقاً فى التفكير ، حتى يَرُدَّه إلى ما حوله صوتُ الشاعر قد جلَس على مسافةٍ من شماله ، والتفَّ حولَه الناس وأخذ يُنشدهم فى نَغْمةٍ عَذْبةٍ غريبةٍ أخبارَ أبى زيد وخليفةَ ودياب ٍ ، وهم سكوتٌ إلا حين يَسْتخفّهم[3] الطَرَبُ أو تَسْتفزُّهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارَوْن[4] ويختصمون ، ويَسكُتُ الشاعرُ حتى يفرُغوا من لَغَطهم[5] بعد وقتٍ قَصيرٍ أو طويل ، ثم يستأنف إنشادَه العَذْبَ بنغمته التى لا تكاد تتغيّر .

ثم يذكر أنه لا يخرج ليلةً إلى موقفه من السِّياج إلا

---

(١) الوثب : القفز . والانسياب هنا : الدخول . (٢) تقرض : تقطع .
(٣) استخفه الأمر : أطربه وحمله على الخفة والجهل . واستفزه : استخفه .
(٤) يتمارون : يتجادلون . (٥) اللغط : الصوت والجلبة.

وفى نفسه حَسْرةٌ لاذعةٌ[1] ؛ لأنه كان يُقدِّر أنْ سيُقطعُ عليه استماعُه لنشيد الشاعر حين تدعوه أُختهُ إلى الدخول فيأبَى ، فتخرج فتَشُدُّه من ثوبه فيمتنع عليها ، فتَحمِله بين ذِراعيها كأنه الثُمامة[2] ، وتَعدو[3] به إلى حيث تُنيمه على الأرض وتضع رأسه على فَخِذِ أُمِّه ، ثم تَعمِد[4] هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدةً بعد الأخرى ، وتقطُر فيهما سائلًا يُؤذيه ولا يُجدِى عليه خيراً[5] ، وهو يألمُ ولكنه لا يشكو ولا يبكى ؛ لأنه كان يكْرَه أن يكون كأُخته الصغيرة بكّاءً شكّاءً[6] .

ثم يُنقَل إلى زاوية فى حُجرةٍ صغيرةٍ فتُنيمه أُخته على حصيرة قد بُسِط عليها لِحافٌ ، وتُلْقِى عليه لِحافاً آخَر ، وتَذَرُه وإنَّ فى نفسه لَحَسراتٍ ، وإنه لَيَمُدُّ سمعه مدًّا يكاد يخترق به الحائط لعلّه يستطيع أن يَصِلَه بهذه النَّغمات الحُلْوة التى يُرَدِّدها الشاعر فى الهواء الطَّلْق تحت السماء . ثم يأخذه النوم ، فما

---

(١) حسرة : تلهف . ولاذعة : شديدة مؤلمة . (٢) الثمام : نبت ضعيف شبيه بالخوص ، يضرب به المثل لما هو هين المتناول .

(٣) تعدو : تجرى .

(٤) تعمد : تقصد . (٥) لا يجدى عليه خيراً : لا يحدث له خيراً ولا ينيله .

(٦) بكاء شكاء : كثير البكاء والشكوى .

يُحِسُّ إلا وقد استيقظ والناسُ نيامٌ ، ومن حولِه إخوته وأخواته يَغُطُّون[١] فيُسرفون فى الغطيط ، فيُلْقى اللحافَ عن وجهه فى خفيةٍ وتَرَدُّد ؛ لأنه كان يكره أن ينام مكشوفَ الوجه . وكان واثقاً أنه إن كشَف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللِّحاف ، فلا بدَّ من أن يعبَث به عِفْريتٌ من العَفاريت الكثيرة التى كانت تعمُر أقطارَ البيت[٢] وتملأ أرجاءه ونواحيه ، والتى كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمسُ واضطرب الناس . فإذا أَوَتِ الشمس إلى كهفها ، والناسُ إلى مضاجعهم ، وأُطفئت السُّرُج ، وهدأت الأصواتُ ، صَعِدتْ هذه العفاريتُ من تحت الأرض وملأَتِ الفضاء حركةً واضطراباً وتهامساً وصياحاً .

وكان كثيراً مايستيقظ فيسمَع تجاوُبَ الدِّيَكَةِ وتصايحَ الدَّجاج ، ويجتهد فى أن يميِّز بين هذه الأصوات المختلفة . فأمَّا بعضُها فكانت أصواتُ دِيَكَةٍ حقّاً ، وأمّا بعضُها الآخر

---

(١) غط النائم : نخر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله .

(٢) أقطار البيت : نواحيه .

فكانت أصواتَ عفاريتَ تَتَشَكَّل بأشكال الدِّيكة وتُقلِّدها عَبَثاً وكيداً. ولم يكن يحفِل بهذه الأصوات ولا يهابُها، لأنها كانت تصل إليه من بعيد، إنما كان يخافُ الخوفَ كلَّه أصواتاً أخرى لم يكن يتبيَّنها إلا بعشقّةٍ وجَهْدٍ. كانت تنبعث من زوايا الْحُجرة نحيفةً ضئيلةً، يمثِّل بعضُها أزيز المِرْجَل[1] يغلِي على النار، ويمثِّل بعضُها الآخر حركةَ متاعٍ خفيفٍ يُنقَلُ من مكان إلى مكان، ويمثِّل بعضُها خَشَباً ينقصم أو عُوداً ينحطم[2].

وكان يخاف أشدّ الخوف أشخاصاً يتمثَّلها قد وقفتْ على باب الحجرة فَسَدَّته سدًّا وأخذتْ تأتى بحركاتٍ مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوِّفة فى حلَقات الذِّكْر. وكان يعتقد أنْ ليس له حِصْنٌ من كلِّ هذه الأشباح الْمَخُوفة والأصوات الْمُنْكَرة؛ إلا أَن يلتَفَّ فى لِحافه من الرأْس إلى القدم، دون أن يَدَعَ بينه وبين الهواء منفذاً أو ثَغْرةً. وكان واثقاً أَنه إن

---

(١) المرجل: القدر. وأزيزه: صوته. (٢) ينقصم وينحطم: ينكسر

ترك ثغرةً فى لحافه فلا بدَّ من أن تمتدَّ منها يدُ عِفْريتٍ إلى جسمه فتناله بالغَمْز والعَبث .

لذلك كان يقضى ليلَه خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه النوم إلا قليلًا . كان يستيقظ مُبَكِّراً ، أو قُلْ كان يستيقظ فى السَّحَر ، ويقضى شَطْراً طويلًا من اللّيل فى هذه الأهوال والأوجال[1] والخوف من العفاريت ؛ حتى إذا وصلتْ إلى سمعه أصوات النساء يَعُدْنَ إلى بيوتهنَّ وقد ملأنَ جِرارَهنّ من القَناة وهنَّ يتغنَّيْنَ « الله يا ليل الله . . » عرَف أنْ قد بَزَغ الفجر ، وأنْ قد هَبَطَتِ العفاريت إلى مستقرِّها من الأرض السُّفلى ، فاستحال هو عفريتاً ، وأخذ يتحدَّث إلى نفسه بصوتٍ عالٍ ، ويتغنَّى بما حفِظ من نشيد الشاعر ، ويَغْمِز مَنْ حولَه من إخوته وأخَوَاته ، حتى يُوقظهم واحداً واحداً .
فإذا تَمَّ له ذلك ، فهناك الصِّياح والغناء ، وهناك الضَّجيج

(١) الأوجال : المخاوف ، الواحد وجل ، بالتحريك .

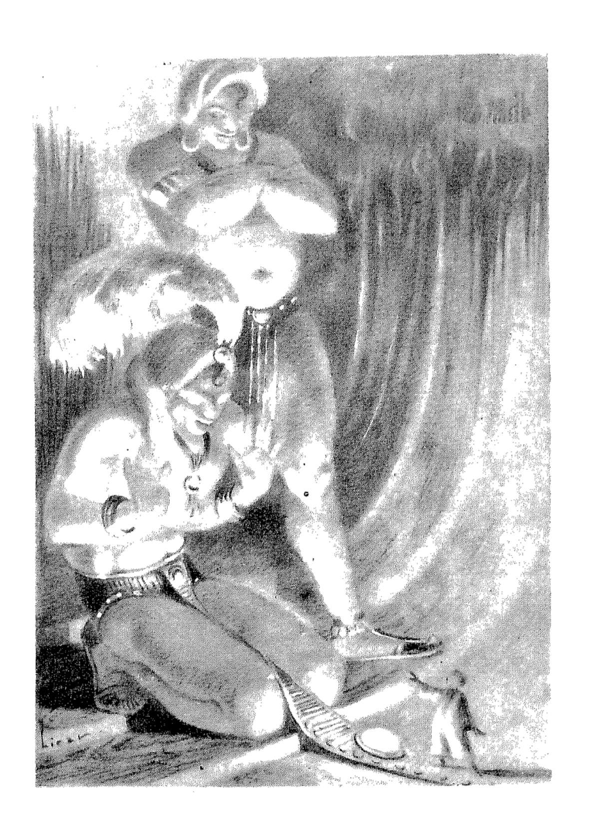
والعَجيج[١] ، وهناك الضوضاء التى لم يكن يَضع لها حدًّا إلا نُهوضُ الشيخ من سريره ، ودعاؤه بالإبريق ليتوضّأ .

حينئذ تَخفُت[٢] الأصوات وتَهْدَأ الحركة ، حتى يتوضّأ الشيخ ويُصَلِّى ويقرأ وِرْدَه ويشرَب قهوته ويمضى إلى عمله . فإذا أَغلق البابَ من دونه نهضتِ الجماعةُ كلّها من الفِرَاش ، وانسابت[٣] فى البيت صائحةً لاعبةً ، حتى تختلِط بما فى البيت من طير وماشية .



---

(١) الضجيج والعجيج : الصياح ورفع الصوت .
(٢) تخفت الأصوات : تسكن أو تضعف .
(٣) انسابت : جرت وجالت .



٢

كان مطمئناً إلى أن الدنيا تنتهى عن يمينه بهذه القناة التى لم يكن بينه وبينها إلا خُطوات معدودة . . . . ولِمَ لا وهو لم يكن يرى عَرْضَ هذه القناة ، ولم يكن يُقَدِّر أنّ هذا العَرْض ضئيلٌ بحيث يستطيع الشابُّ النشيط أن يَثِبَ من إحدى الحافَتَيْن فَيَبْلُغَ الأخرى . ولم يكن يقدِّر أنّ حياةَ الناس والحَيوان والنَّبات تتَّصل من وراء هذه القناة على نحو ما هى من دونها . ولم يكن يقدِّر أنَّ الرجل يستطيع أن يعبُر هذه القناة ممتلئةً دون أن يبلغَ الماء إبطَيْهِ . ولم يكن يقدِّر أنّ الماء ينقطع من حينٍ إلى حينٍ عن هذه القناة ، فإذا هى حفرةٌ مستطيلة يعبَث فيها الصِّبيان ، ويبحثون فى أرضها الرِّخوة عما تَخَلَّف من صغار السَّمك فمات لانقطاع الماء عنه .

لم يكن يقدِّر هذا كلَّه ، وإنما كان يعلَم يقيناً لا يُخالطه الظنّ ، أنّ هذه القناة عالَمٌ آخرُ مستقلٌّ عن العالم الذى كان

يعيش فيه ، تعمُره كائناتٌ غريبةٌ مختلفة لا تكاد تُحْصَى : منها التماسيح التى تَزْدَرِدُ[1] الناسَ ازدراداً ، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بَياضَ النهار وسوادَ الليل ، حتى إذا أشرقتِ الشمس أو غَرَبَتْ طَفَوْا يتنسَّمون الهواء[2] ، وهم حين يَطْفُون خطرٌ على الأطفال وفتنةٌ للرجال والنساء . ومنها هذه الأسماك الطِّوال العِراض التى لا تكاد تَظْفَر بطِفْل حتَّى تزدرده ازدراداً ، والتى قد يُتاحُ[3] لبعض الأطفال أن يظفَروا فى بطونها بخاتَم المُلْك ، ذلك الخاتم الذى لا يكاد الإنسان يُديرُه فى أصبعه حتى يَسْعَى إليه دون لَمْح البَصَر خادمان من الجِنِّ يَقْضِيان له ما يشاء ، ذلك الخاتم الذى كان يَتَخَتَّمه سُلَيمان فيُسَخِّر له الجِنَّ والريحَ وما شاء من قُوَى الطبيعة . وما كان أحَبَّ إليه أن يَهبط فى هذه القناة لعلَّ سمكةً من هذه الأسماك تزدرده فيَظْفَرَ فى بطنها بهذا الخاتم ؛ فقد كانت حاجته إليه شديدةً . . . . ألم يكن يطمَع على أقلِّ

(١) تزدرد : تبتلع . (٢) طفوا : علوا . وتنسم الهواء : تشممه ووجد نسيمه . (٣) يتاح : يهيأ .

تقدير فى أنْ يحمِله أحدُ هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة ليرى بعضَ ما هناك من الأعاجيب ! ولكنه كان يخشَى كثيراً من الأهوال قبل أن يَصل إلى هذه السمكة المباركة .

على أنه لم يكن يستطيع أن يَبْلُوَ[١] من شاطئ هذه القناة مسافةً بعيدة ؛ فقد كان هذا الشاطئُ محفوفاً عن يمينه وعن شِماله بالخطر . فأمّا عن يمينه فقد كان هناك العَدَوِيُّون ، وهم قومٌ من الصعيد يُقيمون فى دارٍ لهم كبيرةٍ يقوم على بابها داعماً كلْبان عظيمان لا ينقطعُ نباحُهما ، ولا تنقطع أحاديث الناس عنهما ، ولا ينجو المارُّ منهما إلا بعد عناءٍ ومَشَقَّةٍ . وأمَّا عن شِماله فقد كانت هناك خِيامٌ يقيم فيها « سعيد الأعرابىّ » الذى كان الناسُ يتحدثون بشَرِّه ومَكْره وحِرْصه على سَفْك الدِّماء ، وامرأتُه « كوابس » التى كانت قد اتخذتْ فى أنفها حَلْقةً من الذهب كبيرة ، والتى كانت تختلف[٢] إلى الدار وتُقَبِّل صاحبَنا من حينٍ إلى حينٍ ، فيُؤْذِيه خِزَامها ويَرُوعه[٣] . وكان أَخْوَفُ الأشياء إليه أن يتقدّم عن يمينه فيتعرّض لكلبى

(١) يبلو : يختبر .
(٢) تختلف إلى الدار : تتردد عليها .
(٣) يروعه هنا : يخيفه .

العَدَوِيِّين ، أو يتقدم عن شِماله فيتعرَّض لشرِّ « سعيد » وامرأته « كوابس » .

على أنه كان يجد فى هذه الدنيا الضيِّقة القصيرة المحدودة من كلّ ناحية ضروباً من اللّهو والعَبَث تملأ نهارَه كلَّه .

ولكنّ ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قُلْ إنّ ذاكرة الإنسان غريبة حين تُحاول استعراض حوادث الطُّفولة ؛ فهى تتمثَّل بعضَ هذه الحوادث واضحاً جلياً كأنْ لم يمض بينها وبينه من الوقت شىء ، ثم يَمَّحِى منها بعضُها الآخر كأنْ لم يكن بينها وبينه عهد .

يذكر صاحبنا السِّياج ، والمزرعةَ التى كانت تنبسط من ورائه ، والقناةَ التى كانت تنتهى إليها الدنيا ، و « سعيداً » و « كوابس » وكلابَ العَدَوِيِّين، ولكنه يُحاول أن يتذكَّر مَصيرَ هذا كلِّه فلا يظفَر من ذلك بشىء . وكأنّه قد نام ذاتَ ليلةٍ ثم أفاق من نومه فلم ير سِياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً ولا كوابس ، وإنما رأى مكانَ السياج والمزرعة بيوتاً قائمة وشوارع مُنَظّمة ، تنحدر كلها من جِسْر القناة ممتدّةً امتداداً

قصيراً من الشّمال إلى الجنوب . وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكنون هذه البيوتَ رجالاً ونساءً ، ومن الأطفال الذين كانوا يعبَثون فى هذه الشوارع .

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدَّم يميناً وشِمالاً على شاطئ القناة دون أن يَخشى كلابَ العَدَويِّين أو مَكْرَ سعيدٍ وامرأته . وهو يذكر أنه كان يقضى ساعاتٍ من نهاره على شاطئ القناة سعيداً مبتهجاً بما سمع من نَغَمات « حسن » الشاعر يتغنّى بشعره فى أبى زيد وخليفة ودياب ، حين يرفَع الماءَ بشادوفه لِيَسْقِىَ به زَرْعَه على الشاطئ الآخر للقناة . وهو يذكر أنه استطاع غيرَ مرّةٍ أن يعبُر هذه القناة على كتف أحد إخْوته دون أن يحتاج إلى خاتَم الملك ، وأنّه ذهب غيرَ مرّة إلى حيثُ كانت تقوم وراءَ القناة شَجَراتٌ من التُّوت فأكل من تُوتها ثمراتٍ لذيذةً . وهو يذكر أنه تقدَّم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلّم وأكل فيها غيرَ مرَّة تُفَّاحاً ، وقُطِف له فيها غيرَ مرّة نَعْناعٌ ورَيْحان . ولكنه عاجزٌ كلَّ العجز أن يتذكّر كيف استحالت الحالُ وتغيّر وجهُ الأرض من طَوْره الأول إلى هذا الطور الجديد .

٣

كان سابعَ ثلاثةَ عشرَ من أبناء أبيه، وخامسَ أحدَ عشرَ من أشقّته . وكان يشعُر بأنّ له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصًّا يمتاز من مكان إخْوته وأخَواته . أكان هذا المكان يُرْضِيه ؟ أكان يُؤْذيه ؟ الحقّ أنه لا يتبيّن ذلك إلا فى غموض وإبهام . والحقُّ أنه لا يستطيع الآن أن يحكم فى ذلك حُكماً صادقاً . كان يُحِسُّ من أُمّه رحمةً ورأفةً ، وكان يجد من أبيه لِيناً ورِفْقاً . وكان يشعُر من إخْوته بشىء مِنَ الِاحْتياط فى تحدُّثهم إليه ومعاملتهم له . ولكنّه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أُمّه شيئاً من الإهمال أحياناً ، ومن الغِلْظة أحياناً أُخرى . وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً ، والِازْوِرار[1] من وقت إلى وقت . وكان احتياط إخوته

(١) الازورار : الإعراض والانحراف .

وأخواته يُؤْذيه ؛ لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيءٍ مِنَ الازْدراء .

على أنه لم يلبَث أن تبيَّن سبب هذا كلِّه ؛ فقد أحسَّ أنّ لغيره من الناس عليه فضلاً ، وأنَّ إخوته وأخَواتِه يستطيعون ما لا يستطيع ، وينهَضون من الأمر لِما لا ينهض له . وأحسَّ أنّ أُمَّه تأذَنُ لإخوته وأخَواتِه فى أشياء تحظُرها عليه[1] ، وكان ذلك يُحْفِظه . ولكن لم تَلبَث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزنٍ صامت عميق ؛ ذلك أنه سمع إخْوته يَصِفون ما لا عِلْمَ له به ، فعلِم أنهم يَرَوْنَ ما لا يرى .

---

(١) تحظرها عليه : تحرمها عليه وتمنعه منها . ويحفظه : يغضبه . وما يبقى فى نفس المرء من الغيظ والغضب يقال له الحفيظة .

٤

كان من أوّل أمره طُلَعَةً[1] لا يحفِل بما يَلْقَى من الأمر فى سبيل أن يستكشف ما لا يعلَم . وكان ذلك يُكلِّفه كثيراً من الألم والعَناء . ولكنّ حادثةً واحدةً حدّت مَيْلَه إلى الاستطلاع ، وملأت قلبَه حياءً لم يُفارقه إلى الآن . كان جالساً إلى العَشَاء بين إخْوته وأبيه ، وكانت أُمُّه كعادتها تُشْرِف على حَفْلة الطعام . تُرشد الخادمَ وتُرشد أخَواتِه اللَّائى كُنَّ يُشاركن الخادمَ فى القيام بما يحتاج إليه الطاعمون . وكان يأكل كما يأكل الناس . ولكن لأمرٍ ما خطَر له خاطرٌ غريب ! ما الذى يقع لو أنّه أخذ اللُّقمة بكلتا يديه بدَلَ أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شىء . وإذن فقد أخذ اللُّقمة بكلتا يديه وغمَسها من الطَّبَق المشترَك ثم رفعها إلى فمه . فأمَّا إخوته فأغرقوا فى الضَّحِك[2] . وأمّا أُمّه

(١) طلعة : كثير التطلع . ولا يحفل بالشىء : لا يبالى به .

(٢) أغرقوا فى الضحك : بالغوا فيه .

فأجهشتْ[1] بالبكاءَ . وأمَّا أبوه فقال فى صوت هادئ حزين : ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بُنَىّ . . وأمَّا هو فلم يعرِف كيف قضى ليلته .

من ذاك الوقتِ تقيَّدت حركاته بشىء من الرَّزانة والإشفاق والحياء لا حَدَّ له . ومن ذلك الوقت عَرَف لنفسه إرادةً قويّة . ومن ذلك الوقت حَرَّم على نفسه ألواناً من الطعام لم تُبَحْ له إلّا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين . حَرَّم على نفسه الْحساَءَ والأُرْز وكلَّ الألوان التى تُؤْكَل بالملاعق ؛ لأنه كان يعرف أنَّه لا يُحْسِنُ اصطناعَ الْمِلْعَقة ، وكان يَكْرَه أن يضحَك إخْوته ، أو تبكى أُمُّه ، أو يُعَلِّمه أبوه فى هدوء حزين .

هذه الحادثة أعانته على أن يَفْهَمْ حقًّا ما يتحدّث به الرُّواة عن أبى العَلاء من أنه أكل ذاتَ يومٍ دبْساً[2] ، فسقَط بعضُه على صدره وهو لا يدرى . . فلما خرج إلى الدَّرْس قال له بعض تلاميذه : يا سيِّدى أكلتَ دبساً ؟ فأسرع بيده إلى صدره

---

(١) أجهشت بالبكاء : همت به وتهيأت له .

(٢) الدبس : عسل التمر وعسل النحل .

وقال : نَعَمْ قاتل الله الشَّرَهَ ! ثم حَرَّم الدبس على نفسه طَوَالَ الحياة .

وأعانته هذه الحادثة على أن يَفهمَ طَوْراً من أطوار أبي العلاء حقَّ الفهم . ذلك أنَّ أبا العلاء كان يتستَّر في أكله حتى على خادمه ؛ فقد كان يأكل في نَفَقٍ[1] تحت الأرض ، وكان يأمر خادمَه أن يُعِدَّ له طعامَه في هذا النفق ثم يخرج ، ويخلو هو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهي . وقد زعموا أنَّ تلاميذه تذاكروا مَرَّةً بِطِّيخَ حَلَبَ وجَوْدته ، فتكلَّف أبو العلاء وأرسل إلى حَلَبَ مَنِ اشْتَرَى لهم منه شيئاً فأكلوا . واحتفظ الخادم لسيِّده بشيءٍ من البطيخ وضعه في النَّفَق ، وكأنه لم يَضَعْه في المكان الذي تعوَّد أن يضع فيه طعامَ الشيخ ، وكَره الشيخ أن يسأل عن حَظِّه من البِطِّيخ ، فلبث البِطِّيخ في مكانه حتى فَسَد ولم يَذُقْه الشيخ .

فَهِمَ صاحبنا هذه الأطوارَ من حياة أبي العلاء حقَّ الفهم ؛ لأنه رأَى نفسه فيها . فكَمْ كان يتمنَّى طِفْلاً لَوِ اسْتطاع أَن

---

(١) النفق : الحفير تحت الأرض .

يخلو إلى طعامه ، ولكنَّه لم يكن يجْرُؤ على أن يُعْلِنَ إلى أهله هذه الرغبة . على أنه خلا إلى بعض الطعام أحياناً كثيرة ، ذلك فى شهر رمضان وفى أيَّام المواسم الحافلة ، حين كان أهلُه يتَّخِذون ألواناً من الطعام حلوةً ، ولكنها تُؤْكَل بالملاعق ؛ فكان يأبَى أن يُصِيبَ منها على المائدة . وكانت أُمُّه تكرَه له هذا الحِرمانَ ، فكانت تُفْرِد له طَبَقاً خاصًّا وتُخْلِي بينه وبينه فى حُجْرة خاصَّة ، يُغْلِقها هو من دونه حتى لا يستطيع أحدٌ أن يُشْرِفَ عليه وهو يأكل .

على أنه عند ما استطاع أن يملِك أمرَ نفسه اتَّخذ هذه الخُطّة له نِظاماً . بدأ بذلك حين سافر إلى أوربا لأوَّل مرّة ، فتكلَّف التعب وأَبَى أن يذهب إلى مائدة السفينة ، فكان يُحْمَلُ إليه الطعامُ فى غُرْفته . ثم وصل إلى فرنسا فكانت قاعدتُه إذا نزل فى فُنْدُقٍ أو فى أُسْرة أن يُحْمَلَ إليه الطعامُ فى غرفته دون أَن يتكلف الذهابَ إلى المائدة العامة . ولم يترك هذه العادة إلا حين خطَب قرينته ، فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألِفها .

هذه الحادثة أخذته بألوانٍ من الشِّدَّة فى حياته ، جعلته مضربَ المثل فى الأُسرة وبين الذين عَرَفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية . كان قليلَ الأكل لا لأنه كان قليلَ الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشَّرَه أو أن يتغامز عليه إخوته . وقد آلمه ذلك أوَّلَ الأمر ، ولكنه لم يلبث أن تعوّده حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس . كان يُسرف فى تصغير اللقمة ، وكان له عَمٌّ يَغيظه منه كلما رآه فيغضَب وَيَنْهَرُه[1] وُيلِحُّ عليه فى تكبير اللقمة ، فيضحك إخوته . وكان ذلك سبباً فى أن كره عمَّه كُرْهاً شديداً . كان يستحى أن يشرَبَ على المائدة مَخافةَ أن يضطرب القدحُ من يده ، أو ألَّا يُحْسِنَ تناولَه حين يقدَّم إليه ، فكان طعامه جافًّا ما جلس على المائدة ، حتى إذا نَهَض عنها ليغسل يديه من حنفيَّة كانت هناك شرِب من مائها ما شاء الله أن يشرَب . ولم يكن هذا الماء نقيًّا دائماً ، ولم يكن هذا النوع من رِىِّ الظمأ ملائماً

---

(١) ينهره : يزجره .

للصحة ، فانتهى به الأمرُ إلى أن أصبح ممعوداً[1] ، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سبباً .

ثم حرَّم على نفسه من ألوان اللَّعِب والعبث كلَّ شىء ، إلا مالا يكلِّفه عناءً ولا يُعَرِّضه للضحك أو الإشفاق . فكان أحبُّ اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحى[2] بها زاوية من البيت ، فيجمعها ويفرّقها ويقرَع بعضَها ببعض ، يُنفِق فى ذلك ساعاتٍ ، حتى إذا سئمه وقف على إخوته أو أترابه وهم يلعبون ، فشاركهم فى اللعب بعقله لا بيده . وكذلك عرَف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظٍّ . وانصرافُه هذا عن العبث حبَّب إليه لوناً من ألوان اللهو ، هو الاستماع إلى القَصَص والأحاديث ؛ فكان أحبُّ شىءٍ إليه أن يسمع إنشادَ الشاعر ، أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أُمه ، ومن هنا تعلّم حسنَ الاستماع . وكان أبوه وطائفةٌ من أصحابه يُحِبُّون القصص حباً جمًّا ، فإذا

---

(١) ممعود : بمعدته داء .

(٢) ينتحى : يقصد .

صَلَّوُا العصرَ اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح ، وأخبار عنترة والظاهر بيبَرْس ، وأخبار الأنبياء والنسَّاك والصالحين ، وكتباً فى الوعظ والسُّنن . وكان صاحبنا يقعُد منهم مَزْجَرَ[1] الكلب وهم عنه غافلون ، ولكنه لم يكن غافلًا عمَّا يسمع ، بل لم يكن غافلًا عما يتركه هذا القصص فى نفوس السامعين من الأثر . فإذا غَرَبَتِ الشمس تفرَّق القوم إلى طعامهم ، حتى إذا صَلَّوُا العشاء اجتمعوا فتحدَّثوا طَرَفاً من الليل ، وأقبل الشاعر فأخذ يُنشدهم أخبار الهلاليّين والزناتيّين ، وصاحبُنا جالس يسمع فى أوَّل الليل كما كان يسمع فى آخر النهار .

والنساء فى قُرَى مصر لا يُحْبِبْنَ الصمت ولا يَمِلْنَ إليه ؛ فإذا خلتْ إحداهن إلى نفسها ولم تجد مَنْ تتحدَّث إليه ، تحدَّثت إلى نفسها ألواناً من الحديث ، فغنَّت إن كانت فَرِحةً ، وعدَّدت[2] إن كانت محزونة . وكلُّ امرأة فى

---

(١) أى قريباً منهم . ومزجر الكلب : المكان الذى يزجر فيه . وذلك أن الكلب يكون حول القوم عند الطعام فينهونه بالصوت ليبعد عنهم .

(٢) التعديد : ذكر محاسن الميت . والمراد هنا : ما تلهج به المرأة من بكاء موتاها أو ذكر أشجانها .

مصر محزونة حين تُريد . وأحَبُّ شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يَذْكُرْنَ آلامهن وموتاهن فيعدّدن ، وكثيراً ما ينتهي هذا التعديد إلى البكاء حقًّا . وكان صاحبُنا أسعدَ الناس بالاستماع إلى أخَواته وهنَّ يتغنَّين . وأُمِّه وهي تُعَدِّد . وكان غناء أخَواته يَغيظه ولا يترك في نفسه أثراً ؛ لأنه كان يجده سخيفاً لا يدلُّ على شيء . في حين كان تعديدُ أُمِّه يهزُّه هزًّا عنيفاً، وكثيراً ما كان يُبكيه . وعلى هذا النحو حفِظ صاحبنا كثيراً من الأغاني ، وكثيراً من التعديد ، وكثيراً من جِدِّ القصص وهَزْله ، وحفِظ شيئاً آخر لم تكن بينه وبين هذا كلِّه صلة ، وهي الأوراد التي كان يتلوها جَدّه الشيخ الضرير إذا أصبح أو أمسى .

كان جَدُّه هذا ثقيلَ الظِّل بغيضاً إليـــه ، وكان يقضي في البيت فَصْلَ الشتاء من كلِّ سنة ، وكان قـد صَلُحَ ونَسُك حين اضطرته الحياة إلى الصَّلاح والنُّسُك ، فكان يُصَلِّي الخمس لأَوقاتهـا ، ولم يكن لسانُه يَفْتُر عن ذكر الله . وكان يستيقظ آخرَ الليل ليقرأ « وِرْد السَّحَر » . وكان

ينام فى ساعة متأَخِّرة بعد أن يصلِّى العشاء ويقرأ ألواناً من الأوراد والأدعية . وكان صاحبنا ينـام فى حُجْرةٍ مجاورةٍ لحجرة هذا الشيخ ، فكان يسمعه وهو يتلو ، حتى حفظ من هذه الأوراد والأدعية شيئاً كثيراً . وكان أهلُ القرية يحبُّون التصوُّف ويُقيمون الأذكار ، وكان صاحبنا يحبّ منهم ذلك : لأنه كان يلهو بهذا الذكر ، وبما يُنْشِده المنشدون أثناءه . ولم يَبْلُغِ التاسعة من عمره حتى كان قد وَعَى من الأغانى والتعديد والقصص وشـــعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملةً صالحة ، وحفظ إلى ذلك كلِّه القرآن .

ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده ، وإن كان يذكر من حياته في الكُتَّاب مواقفَ كثيرةً ، منها ما يُضْحكه الآن ، ومنها ما يحْزِنه : يذكر أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكُتَّاب محمولاً على كتِف أحد إخوته ؛ لأن الكُتَّاب كان بعيداً ، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشياً تلك المسافة . ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكُتَّاب . ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين يدى « سيِّدنا » ومِنْ حولِه طائفة من النِّعال كان يعبَث ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد أُلْصِق بها من الرُّقَع . وكان « سيِّدنا » جالساً على دَكَّةٍ[1] من الخَشَب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة ؛

---

(١) تطلق الدكة في مصر على سرير من الخشب يجلس عليه ، له في جوانبه العليا ما عدا مقدمه سياج . وأصل الدكة (بفتح الدال) : بناء يسطح أعلاه ويجلس عليه . فأطلقها المصريون على هذا السرير ، ولكنهم يكسرون الدال .



قد وُضِعَتْ على عين الداخل من باب الـكُتّاب بحيث يمرّ كلُّ داخل « بسيدنا » . وكان « سيدنا » قد تعوّد متى دخل الـكتّاب أن يخلع عَباءته ، أو بعبارة أدقّ « دِفّيتَهُ » وَيلفُّها لَفًّا يجعلها فى شكل المِخَدَّة ، ويضعها عن يمينه ، ثم يخلَع نعله ويتربَّع على دكته ، ويُشْعل سيجارته ، ويبدأ فى نداء الأسماء . وكان « سيِّدنا » لا يُعْنى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بُدًّا ، كان يَرْقعهُما من اليمين ومن الشِّمال ومن فوقُ ومن تحتُ . وكان إذا أَخَلَّتْ به إحدى نعليـــه دعا أحد صِبْيان الـكتّاب وأخذ النعل بيده وقال له : تذهبُ إلى « الحزيّن » وهو هنا قريب ، فتقول له : « يقول لك سيِّدنا إنّ هذه النعل فى حاجة إلى لَوْزة من الناحية اليمنى » . انظر أترى ! هنا حيث أضع أصبعى . فيقول لك « الحزيّن » : « نعم ! سأضع هذه اللوزة » . فتقول له : « يقول لك سيِّدنا يجب أن تتخيَّر الجلد متيناً غليظاً جديداً ، وأن تُحْسِن الرَّقْعَ بحيث لا يظهر ، أو بحيث لا يكاد يظهر » . فيقول لك : « نعم سأفعل هذا» . فتقول له:« ويقول لك سيِّدنا : إنه عَميلك

منذ زمن طويل ، فاستوصِ بالأجر خيراً » . ومهما يقل لك فلا تَقْبَلْ منه أكثرَ من قرش ، ثم عُدْ إليَّ مسافةَ ما أُغمض عيني ثم أفتحها . وينطلق الصبيّ ويلهو عنه سيِّدنا ، ثم يعود وقد أغمض سيِّدنا عينه وفتحها مرَّةً ومرَّةً ومرَّات .

على أنّ الرجل كان يستطيع أن يُغْمِض عينه ويفتَحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً ، فقدكان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلًا جدًّا من النور فى إحدى عينيه ، يُمثِّل له الأشباح دون أن يُمكِّنه أن يتميزها . وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل . . . وكان يخدَع نفسه ويظنّ أنه من المبصرين . . . ولكنّ ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد فى طريقه إلى الكتّاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه ، يبسُط ذراعيه على كَتِفَيْ كلٍّ واحد منهما ، ويمشى الثلاثةُ فى الطريق هكذا ! قد أخذوها على المارّة ، حتى إنهم ليتنحّون لهم عنها .

وكان منظر سيدنا عجباً فى طريقه إلى الكتّاب وإلى البيت صباحًا ومساءً . كان ضخماً بادناً ، وكانت دِفِّيَّته تزيد فى ضخامته . وكان كما قدَّمنا يبسط ذراعيَه على كتفى رفيقيه .

وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً . وكان سيِّدنا يتخيَّر من تلاميذه لهذه المُهمَّة أنجبَهم وأحسنَهم صوتاً ؛ ذلك أنه كان يحبّ الغِناء ، وكان يحبّ أن يعلِّم تلاميذه الغناء ، وكان يتخيَّر الطريق لهـذا الدرس . فكان يُغَنِّي ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حيناً ، والاستماع له حيناً آخر ، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر . وكان سيِّدنا لا يُغنِّي بصوته ولسانه وحدهما ، وإنما يُغنِّي برأسه وبدَنه أيضاً ؛ فكان رأسُه يهبط ويصعَد ، وكان رأسه يلتفت يميناً وشِمالاً . وكان سيِّدنا يُغنِّي بيديه أيضاً . فكان يُوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه . وكان سيِّدنا يُعجبـه « الدَّوْر » أحياناً ، ويرى أنّ المشى لا يلائمه فيقف حتى يُتِمَّه . وأبدعُ من هـذا كله أنّ سيِّدنا كان يرى صوته جميـلاً ، وما يَظنّ صاحبنا أنّ الله خلق صوتاً أقبح من صوته . وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل : « إنّ أَنْـكَرَ الأَصْواتِ لَصَوتُ الْحَمِيرِ » إلّا ذكر سيِّدنا وهو يُوقع أبياتاً من « البُرْدة » فى طريقه إلى الجامع منطلقاً

لصلاة الظهر أو فى طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتّاب.

يرى صاحبنا نفسَه، كما قدَّمنا، جالساً على الأرض يعبَث بالنعال من حوله، وسيِّدنا يُقْرِئه سورةَ الرحمن، ولكنه لا يذكر أكان يقرؤها بادئًا أم معيداً.

وكأنه يرى نفسه مرَّةً أخرى جالساً لا على الأرض ولا بين النعال، بل عن يمين سيِّدنا على دَكَّة أُخرى طويلة، وسيِّدنا يُقرئه: «أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنفسَكم وأنْتُمْ تَتلُونَ الكِتابَ أفَلاَ تَعْقِلُون». وأكبرُ ظنِّه أنه كان قد أتمَّ القرآنَ بَدْءًا وأخذ يُعيده. وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفِظ القرآن؛ فقد أتمَّ حِفظَه ولمّا يُتِمّ التاسعة من عمره. وهو يذكر فى وضوح وجلاءٍ ذلك اليومَ الذى خَتَم فيه القرآن. ذلك أنَّ سيِّدنا كان يتحدَّث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن خَتْم القرآن، وعن أن أباه سيبتهج به. وكان يضع لذلك شروطاً ويُطالب بحقوقه. ألم يكن قد علّم قبلَ صاحبنا أربعةً من إخوته ذهب واحدٌ منهم إلى

الأزهر ، والآخرون إلى المدارس ، وصاحبنا هو الخامس ! . .
فكم لسيِّدنا على الأسرة من حقوق ! وحقوقُ سيِّدنا على الأسرة كانت تتمثّل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً . فأمّا الحقوق التى كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوةٌ دسِمةٌ قبل كلِّ شىء ، ثم جُبَّة وقُفْطان ، وزوجٌ من الأحذية ، وطربوش مغربىٌّ ، وطاقيَّة من هذا القماش الذى تُتَّخَذُ منه العمائم ، وجنيه أحمر ، لا يرضى بشىء دون ذلك . . . فإذا لم يُؤَدَّ إليه هذا كلُّه فهو لا يعرِف الأسرةَ ولا يَقْبَل منها شيئاً ، ولا صلةَ بينه وبينها ، وهو يُقْسم على ذلك بمُحْرِجات الأيمان[١] . وكان هذا اليوم يوم أربعاء ، وكان سيِّدنا قد أنبأ فى الصباح بأنَّ صاحبنا سيَختِم القرآن فى هذا اليوم . وأقبلوا فى العصر ، يمشى سيدنا متعمداً على رفيقيه ، ويمشى صاحبنا من ورائه يقوده يتيمٌ من أيتام القرية . حتى إذا بلغوا البيت دفَع سيِّدُنا الباب دفعاً وصاح صيحته المعتادة : « يا ستَّار » ، واتَّجه إلى المَنظَرة ، فإذا فيها الشيخ قد انفتل[٢] من صلاة العصر

(١) محرجات الأيمان : الأيمان المغلظة التى توقع فى الحرج ، وهو الإثم .
(٢) انفتل : انصرف .

وهو يقرأ شيئاً من الأدعية كعادته ، فاستقبلهم مبتسماً مطمئنًا ، وكان صوته هادئًا ، وكان صوت سيِّدنا عالياً ، وكان صاحبنا لا يقول شيئاً ، وكان اليتيم مبتهجاً . أجلس الشيخ سيِّدنا ورفيقيه ، ووضع فى يد اليتيم قطعةً من فِضَّة ، ودعا الخادمَ وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يُصيب شيئاً من الطعام ، ومَسح على رأس ابنه وقال : « فتَح الله عليك ! أُنْصَرِفْ إلى أُمِّك ، وقُلْ لها إنّ سيِّدنا هنا » .

وكانت أُمُّه قد سمعت صوت سيِّدنا ، وكانت قد أعدَّت له ما لا بدَّ منه فى مثل هذا الوقت ، وهو كُوزٌ ضخم طويل من السُّكّر المذاب لا شىءَ عليه . أُخرِج إلى سيِّدنا هذا الكُوز فعَبَّه عبًّا ، وشرب رفيقاه كوبين من السكَّر المذاب أيضاً ثم أُخرجت القهوةُ فشربها سيِّدنا مع الشيخ . وكان سيِّدنا يُلِحُّ على الشيخ فى أن يمتحن الصبىّ فيما حفِظ من القرآن ، وكان الشيخ يُجيب : « دَعْهُ يلعب إنه صغير » . ثم نهض سيِّدنا لينصرف ، فقال له الشيخ : « نصلِّى المغرب معاً إن شاء الله » .

وكانت هذه هى الدعوة إلى العَشاء . وما أحْسِبُ أنّ سيِّدنا نال شيئًا آخر أجراً على خَتْم صاحبنا للقرآن ؛ فقد كان يعرف الأُسرة منذ عشرين سنة ، وكان له فيها عادات غيرُ مقطوعة ، وكانت الكُلْفة بينه وبينها مرفوعة ، وكان واثقًا أن الحظّ إن يُخْطئه معها هذه المرّةَ فلن يُخطئه مرةً أُخرى .



٦

منذ هذا اليوم أصبح صبيُّنا شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة ؛ لأنّه حفِظ القرآن ، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنُّه . دعاه أبوه شيخاً ، ودعته أمّه شيخاً ، وتعوّد سيِّدنا أن يدعوه شيخاً أمام أبويه ، أو حين يرضَى عنه ، أو حين يريد أن يترضّاه لأمر من الأمور . فأمَّا فيما عدا ذلك فقد كان يدعوه باسمه ، وربما دعاه «بالواد» . وكان شيخنا الصبيُّ قصيراً نحيفاً شاحباً زَرِىَّ الهيئة[1] على نحوٍ مَّا ، ليس له من وَقارِ الشيوخ ولا من حسن طَلْعتهم حظٌّ قليلٌ أو كثير . وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذى أضافاه إلى اسمه كِبْرًا منهما وعُجباً لا تَلَطُّفًا به ولا تَحبُّباً إليه . أمَّا هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أوَّل الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع : كان ينتظر أن يكون شيخاً حقًّا ، فيتَّخِذَ العِمَّة ويلبَس الجُبّة والقُفْطان ، وكان من العسير إقناعُه

(١) زرى الهيئة : حقيرها .

بأنه أصغر من أن يحمِل العِمَّة ، ومن أن يدخُل فى القُفْطان ...
وكيف السبيلُ إلى إقناعه بذلك وهو شيخٌ قد حفِظ القرآن !
وكيف يكون الصغير شيخاً ! وكيف يكون مَنْ حفظ القرآن
صغيراً ! هو إذنْ مظلوم . . . وأىُّ ظلمٍ أشدّ من أن يُحال
بينه وبين حقِّه فى العِمَّة والْجُبَّة والقفطان ! . .

وماهى إلا أيَّامٌ حتى سئم لقب الشيخ ، وكرِه أن يُدْعَى به ،
وأحسَّ أنّ الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأنَّ الإنسان يظلمه
حتى أبوه ، وأنّ الأُبوّة والأُمومة لا تعصِم الأب والأُمَّ من
الكذب والعبث والخداع .

ثم لم يلبَثْ شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء[1] لِلَقَب
الشيخ ، وإحساسٍ بما كان يملأ نفس أَبيه وأُمِّه من الغرور
والعُجْب . ثم لم يلبث أن نَسِى هذا كلّه فيما نَسِى من الأشياء .

على أنه فى حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يُدْعَى شيخاً ،
وإنما كان خليقاً رغم حِفْظه للقرآن أن يذهب إلى الكُتَّاب
كما كان يذهب ، مُهْمَلَ الهيئة ، على رأسه طاقيّته التى تُنَظَّف

---

(١) استحال إلى كذا : تحول وصار . وازدراء : احتقار .

يوماً فى الأُسبوع ، وفى رجليه حِذاء يُجَدُّ مَرَّةً فى السنة ، ولا يَدَعُه حتى لا يحتملَ شيئاً ، فإذا تركه فليمشِ حافياً أُسبوعاً أو أسابيع حتى يأذَنَ الله له بحذاء جديد . كان خليقاً بهذا كله؛ لأنّ حفظه للقرآن لم يدُم طويلًا . . . أكان وحده ملوماً فى ذلك ؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيِّدنا ؟ الحقُّ أنّ سيِّدنا أهمله حيناً وعُنِى بغيره من الذين لم يختموا القرآن . أهمله ليستريح ، وأهمله لأنه لم يتقاضَ أجراً على خَتْمه للقرآن . واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال ، وأخذ يذهب إلى الكُتَّاب يقضى فيه طَوالَ النهار فى راحة مطلقة ولعب متصل ، ينتظر أن تنتهى السَّنَةُ ويأتى أخوه الأزهرىّ من القاهرة ، حتى إذا انتهت الإجازةُ وعاد إلى القاهرة ، استصحبه لِيُصْبِحَ شيخاً حقًّا ، وليجاورَ فى الأزهر .

ومضى على هذا شهرٌ وشهر وشهر ، يذهب صاحبنا إلى الكتَّاب ويعود منه فى غير عمل ، وهو واثقٌ بأنه قد حفِظ القرآن ، وسيِّدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن ، إلى أن كان اليوم المشئوم . . . كان هذا اليوم مشئوماً حقًّا ؛ ذاق فيه

صاحبنا لأوّل مرّة مرارةَ الخِزْى والذِّلّةِ والضَّعَة وكره الحياة .
عاد من الكتّاب عصر ذلك اليوم مطمئنًّا راضياً ، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ ، فأقبل عليه ومعه صديقانِ له . فتلقّاه أبوه مبتهجًا ، وأجلسه فى رِفْق ، وسأله أسئلةً عادية ، ثم طلب إليه أن يقرأ « سورة الشعراء » .
وما هى إلا أن وقَع عليه هذا السؤالُ وَقْعَ الصاعقة ، ففكَّر وقدَّر ، وتحفَّز[1] واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وسمَّى الله الرحمن الرحيم ، ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلاّ أنها إحدى سُوَرٍ ثلاثٍ ، أوّلها (طسم) ، فأخذ يُرَدِّد (طسم) مَرَّةً ومرّةً ومرّةً ، دون أن يستطيعِ الانتقال إلى ما بعدها .
وفتح عليه أبوه بما يلى هذه الكلمة من سورة الشعراء ، فلم يستطيع أن يتقدَّم خطوةً . قال أبوه : فاقْرَأْ سورة النَّمْل .
فذكر أنّ أوّل سورة النَّمل كأوّل سورة الشعراء (طس) ، وأخذ يردِّد هذا اللفظ . وفتح عليهِ أبوه ، فلم يستطع أن يتقدَّم خطوة أخرى . . . قال أبوه : فاقْرَأْ سورة القَصَص ،

---

(١) تحفز : انتصب فى قعدته غير مطمئن ، أو استوى جالساً على وركيه .

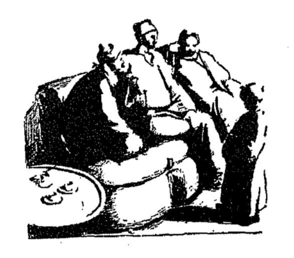
فذكر أنها الثالثة ، وأخذ يُرَدِّد « طسم » ، ولم يفتح عليه أبوه هذه المرّة ، ولكنه قال له فى هدوء : قُم ؛ فقد كنتُ أحسَبُ أنّك حَفِظتَ القرآن ، فقام خَجِلًا يَتصَبَّبُ عَرَقاً . وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخَجَلِ وصِغَرِ السنِّ ، ولكنه مضى لا يدرى أيلوم نفسه لأنه نَسِيَ القرآن ، أم يلوم سيِّدنا لأنه أهمله ، أم يلوم أباه لأنه امتحنه !

ومهما يكن من شيء ، فقد أمسى هذا اليومَ شرَّ مساء ، ولم يظهَر على مائدة العَشاء ، ولم يسأل عنهُ أبوه ، ودَعَتْه أُمُّه فى إعْراض إلى أَن يتعشَّى معها فأَبى ، فانصرفت عنه ونام .

ولكنَّ هذا المساءَ المُنْكَرَ كان فى جُملته خيراً من الغد . ذهب إلى الكُتَّاب ، فإذا سيِّدُنا يدعوه فى جَفْوة : ماذا حصل بالأمس ؟ وكيف عَجَزْتَ عن أَن تقرأ سورة الشعراء ؟ وهل نَسِيتها حقًّا ؟ أُتْلُها علىّ ! فأخذ صاحبنا يردِّد (طسم) . وكانت له مع سيِّدنا قِصَّةٌ كقِصّته مع أَبيه . قال سيِّدنا : عَوَّضَنَى الله خيراً فيما أَنفقتُ معك من وقتٍ ، وما بذلتُ فى تعليمك من جَهْدٍ ؛ فقد نَسِيتَ القرآن ، ويجب أَن تعِيدَه .

ولكنَّ الذنبَ ليس عليك ولا عَلَيّ ، وإنما هو على أبيك ؛ فلو أنه أعطانى أجرى يوم ختمتَ القرآن ، لباركَ الله له فى حِفْظك ، ولكنّه منعنى حقِّى ، فمحا الله القرآن من صَدْرك .

ثم بدأ يُقْرئه القرآنَ من أوّله ، شأنه مع من لم يكن شيخاً ولا حافظاً .



٧

وليس من شكٍّ في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً جيِّداً في مُدَّةٍ قصيرةٍ جدًّا. فهو يذكر أنه عاد من الكتَّاب ذاتَ يوم مع سيِّدنا، وكان سيِّدنا في هذا اليوم حريصاً على أن يعود معه، حتى إذا وصلوا إلى الدار عَطَف عليها سيِّدنا فدفع البابَ فاندفع له، وصاح صيحتَه المألوفة: «يا ستَّار!» وكان الشيخُ كعادته في المَنْظرةِ قد فرَغ من صلاة العصر. فلمَّا استقرَّ سيِّدنا في مجلسه، قال للشيخ: «زعمت أنَّ ابنك قد نَسِي القرآن، ولُمْتَنِي في ذلك لَوْمًا شديداً، وأقسمتُ لك أنه لم يَنْسَ وإنما خَجِل، فكذَّبتني وعَبِثْتَ بلِحْيَتِي هذه. وقد جئتُ اليوم لتمتحنَ ابنك أمامي، وأنا أُقسم: لئن ظَهر أنه لا يحفَظ القرآن لأحْلِقَنَّ لِحيتي هذه، ولأُصْبِحَنَّ مَعَرَّةَ الفقهاء في هذا البلد». قال الشيخ: «هَوِّنْ عليك! ومالَكَ لا تقول: إنه نَسِي القرآن ثم أقرأته إيّاه مَرَّةً أُخرى!». قال: «أُقْسِمُ

باللّه ثلاثًا ما نَسِيه ولا أقرأته ، وإنما استمعتُ له القرآن ، فتلاه علىَّ كالماء الجارى ، لم يَقِفْ ولم يتردَّد » .

وكان صاحبنا يسمع هذا الحوارَ[1] ، وكان مقتنعًا أنَّ أباه مُحِقٌّ وأنّ سيِّدنا كاذبٌ ولكنه لم يَقُلْ شيئًا ، ولَبث منتظرًا الامتحانَ .

وكان الامتحانُ عسيراً شاقًّا ، ولكنَّ صاحبنا كان فى هذا اليوم نجيباً بارعًا ، لم يُسْألْ عن شىء إلا أجابَ فى غير تَرَدُّدٍ وقرأَ فى إسراع ، حتى كان الشيخ يقول له : « على مَهْلِك فإن الكَرَّ فى القرآن خطيئة » حتى إذا أَتَمَّ الامتحانَ قال له أبوه : « فَتَحَ اللّهُ عليك ! اِذهَبْ إلى أمِّك فقُلْ لها إنَّكَ حَفِظتَ القرآن حقًّا » . ذهب إلى أُمِّه ، ولكنه لم يَقُلْ لها شيئًا ، ولم تسأله هى عن شىء . وخرج سيِّدنا فى ذلك اليوم ، ومعه جُبَّةٌ من الْجُوخ خَلَعها عليه الشيخ .

---

(١) الحوار : المراجعة فى الحديث .

٨

وأقبل سيدنا إلى الكتاب من الغد مسروراً مبتهجاً، فدعا الشيخ الصبي بلقب الشيخ هذه المرة قائلاً : أمّا اليوم فأنت تستحق أن تُدعى شيخاً ؛ فقد رفعتَ رأسي وبيّضتَ وجهي وشرّفتَ لحيتي أمس ، واضطُرَّ أبوك إلى أن يُعطيني الجبّة . ولقد كنتَ تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب ، وكنتُ على النار مخافةَ أن تزِلّ[1] أو تنحرف . وكنتُ أُحصنك بالحيّ القيّوم الذى لا ينام ، حتى انتهى هذا الامتحان . وأنا أُعفيك اليومَ من القراءة ، ولكن أُريد أن آخُذَ عليك عهداً ، فعِدْني بأن تكون وَفيّاً . قال الصبي فى استحياء[2] : « لك عليّ الوفاء » . قال سيدنا : فأَعْطِني يدَك . وأخذ بيد الصبيّ ، فما راعَ[3] الصبيّ إلاّ شيء فى يده غريبٌ ، ما أحسّ مثلَه

---

(١) يزل هنا : يغلط . ويقال : زل عن الصخرة ونحوها ، إذ زلق عنها وسقط ، وعن الصواب فى منطق ، إذا انحرف .

(٢) فى استحياء : فى خجل . (٣) ما راعنى إلا كذا : أى ما شعرت إلا به .

قَطٌّ، عريضٌ يَتَرَجْرَجُ[1] ، مِلْؤه شَعَرٌ تغور فيه الأصابع . ذلك أنّ سيِّدنا قد وَضَع يد الصبيِّ على لِحْيته ، وقال : هذه لِحْيتى أُسَلِّمك إيّاها ، وأُريد ألّا تُهِينَها ، فقُلْ : « واللهِ العظيم ثلاثاً ، وحقِّ القرآنِ المَجيد لا أُهِينُها » . وأقْسمَ الصبيُّ كما أراد سيِّدنا . حتى إذا فَرَغ من قَسَمِه ، قال له سيِّدنا : كَمْ فى القُرآن من جُزْء ؟ قال : ثلاثون . قال سيِّدنا : وكَمْ نشتغلُ فى الكُتَّاب من يوم ؟ قال الصبيُّ : خمسةَ أيام . قال سيِّدنا : فإذا أردتَ أن تقرأ القرآن مَرَّةً فى كلِّ أسبوع ، فكَمْ تقرأ من جُزْءٍ كلّ يومٍ ؟ فَكَّر الصبيُّ قليلاً ثم قال : ستَّةَ أجزاء . قال سيِّدنا : فتُقْسِمُ لتتلُوَنَّ على العَريف ستَّةَ أجزاءٍ من القرآن فى كلِّ يومٍ من أيَّام العمل ، ولتَكُونَنَّ هذه التلاوةُ أوّلَ ما تأتى به حين تَصِل إلى الكُتَّاب . فإذا فرغتَ منها فلا جُنَاحَ[2] عليك أن تلهو وتلعب ، على ألاّ تَصْرِفَ الصِّبيان عن أعمالهم . أعطَى الصبيُّ على نفسه هذا العَهْدَ . ودعا

---

(١) يترجرج : يضطرب . (٢) الجناح (بضم الجيم) : الإثم .

سيِّدنا العريفَ فأخذ عليه عهداً مثلَه ، لَيَسْمَعَنَّ للصبيِّ في كلِّ يوم سِتَّةَ أجزاءٍ من القرآن ، وأودعه شَرَفَه ، وكرامةَ لِحْيته ، ومكانةَ الكتَّاب في البلد ؛ وقبل العريف الوديعة .

وانتهى هذا المَنْظَرُ وصِبْيانُ الكتَّاب ينظُرُون ويَعْجَبُونَ .

٩

من ذلك اليوم انقطعت صلة الصبيّ التعليمية « بسيِّدنا » ، واتَّصلت بالعريف . ولم يكن العريف أقلَّ غرابةً من سيِّدنا : كان شابًّا طويلًا نحيفًا أسود فاحمًا ، أبوه سودانيٌّ ، وأُمُّه مولَّدة ، وكان سيِّئ الحظّ ، لم يُوَفَّق في حياته لخير ، جرَّب الأعمالَ كلَّها فلم يُفْلِح في شيء منها . أرسله أبوه عند كثير من الصُّنَّاع ليتعلَّم صنعةً فلم يُفْلِح ، وحاول أن يجد له في معمل السكَّر شُغلَ العاملِ أو الخفيرِ أو البوَّاب أو الخادم ، فلم يفلح في شيء من هذا . وكان أبوه ضيِّق الصدر به ، يَعُقُّه ويزدريه ، ويُؤْثِرُ[1] عليه إخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون . وكان قد ذهب إلى الكُتَّاب في صِباه فتعلَّم القراءة والكتابة ، وحفِظ سُوَراً من القرآن لم يلبَثْ أن نَسِيَها . فلما ضاقت به الحياة وضاق بها أقبل إلى سيِّدنا فشكا إليْه أمرَه . قال له سيِّدنا : فتعالَ هنا فكُنْ عريفًا ، عليك أن تعلم الصِّبْيانَ

(١) يؤثر عليه إخوته : يفضلهم عليه .

القراءة والكتابة ، وتُلاحِظهم وتَمْنَعَهم من العبث ، وتقوم مقامى متى غِبْتُ ، وعلىّ أن أُقرِئهم القرآن وأُحفِّظهم إيّاه . وعليك أن تفتح الكتّاب قبل أن تطلُعَ الشمس ، وتُشْرِفَ على تنظيفه قبل أن يحضُر الصبيان ، وعليك أن تُغْلِقَ الكتّاب متى صُلِّيَتِ العصرُ ، وتأخذ مفتاحه . وعليك مع هذا كلِّه أن تكون يدى اليمنى ، ولك رُبْعُ ما يأتى به الكتّاب من نَقْد ، تقتضى ذلك فى كل أُسبوع أو فى كلِّ شهر . وتمّ هذا العَقْدُ بين الرجلين وقرآ عليه الفاتحة ، وبدأ العريف عمله.

وكان العريف يُبْغِضُ سيِّدنا بُغْضاً شديداً ويزدريه ، ولكنه يُصانعه[1] . وكان سيدنا يكره العريف كرهاً عنيفاً ويحتقره ، ولكنه يتملَّقه .

فأمّا العريف فكان يكرَه سيِّدنا ؛ لأنه أَثِرٌ[2] غَشّاشٌ كَذّاب ، يخْفِى عليه بعضَ موارد الكتّاب ، ويستأثر[3] بخير ما يحمِل الصبيان معهم من طعام . ويزدريه ؛ لأنه كان ضريراً يتكلَّف الإبصار ، وكان قبيح الصوت يتكلَّف حُسْنَ الصوت .

(١) يصانعه : يلاينه ويداريه . (٢) أثر : يؤثر نفسه بالخير .
(٣) استأثر بالشىء : استبد به وخص به نفسه .

وأمّا سيدنا فكان يَكْره العريف : لأنه مَكّارٌ داهية ، ولأنه يُخْفِي عليه كثيراً مما ينبغي أن يعلمه ، ولأنه سارقٌ ، يسرِق ما يوضع بين يديهما من الطعام وقتَ الغداء ويختلس أطاييه ، ولأنه يأتمر(١) مع كبار الصبيان فى الكتّاب ، ويَعْبَث معهم على غفلةٍ منه ، فإذا صُلِّيتِ العصرُ وأُغلق الكتّابُ كان بينه وبينهم مواعيدُ هناك عند شجر التوت أو عند « القنطرة » أو فى « معمل السكَّر » .

ومن غريب الأمر أنّ الرجلين كانا صادقين مُصيبين ، وأنهما كانا مُضْطَرَّيْنِ إلى أن يتعاونا على كُرْهٍ ومَضَض(٢) : أحدُهما محتاج إلى أن يعيش ، والآخر محتاج إلى من يدبِّر له أمور الكتّاب .

اتّصل صبينا بالعريف ، وأخذ يتلو القرآن بين يديه ، ستَّةَ أجزاءٍ فى كلِّ يوم . ولكنَّ ذلك لم يستمرَّ ثلاثة أيام . ضاق الصبيُّ بهذه التلاوة منذ اليوم الأول ، وضاق العريف بها منذ اليوم الثانى ، وتكاشفا(٣) بهذا الضيق فى اليوم

---

(١) يأتمر معهم هنا : يتشاور معهم على عمل شىء .

(٢) المضض : الألم . (٣) تكاشفا : كشف كل منهما للآخر ما فى نفسه .

الثالث ، واتّفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبيّ في سرِّه ستَّةَ أجزاءٍ بين يَدَيِ العريف ، حتى إذا أحسَّ اضطراباً أو غاب عنه لفظ ، سأل عنه العريف . وأخذ الصبيّ يأتي في كلِّ يوم فيسلِّم على العريف . ويجلس على الأرض بين يديه ، ويحرِّك شفتيه مُهَمْهِماً[1] كأنه يقرأ القرآن ، ويسأل العريف من حين إلى حين عن كلمة ، فيُجيبه مَرَّةً ويتثاقل عنه مرّة أخرى . ويأتي سيِّدنا في كلِّ يوم قبيل الظهر ؛ فإذا سلّم وجلس، كان أوَّلُ عملٍ يأتيه أن يدعو الصبيَّ فيسأله : أقرأت ؟

— نعم .

— من أين إلى أين ؟

وكان الصبيُّ يجيب : من البقرة إلى « لتَجِدَنَّ » في يوم السبت ، ومن « لتجدنَّ » إلى « وما أُبَرِّئُ » في يوم الأحد . وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلح عليها الفقهاء ، وخصَّ لكل يوم من الأيام الخمسة ، قسماً من هذه الأقسام يُخبر به سيدنا متى سأله .

---

(١) المهمهة : الكلام الخفي .

ولكن العريف لم يكن ليكتفى بهذا الاتّفاق الذى يريحه ويُريح الصبىَّ ، وإنما كان يطمَع فى أن يستفيد من موقف الصبىِّ بين يديه ، وكان يُنْذِر الصبىَّ من حين إلى حين ، بأنه سَيُخْبِر سيدنا ، أنه قد وجد بعض السُّوَر « متمتعة » ، سيِّئة الحفظ عند الصبىّ ، « سورة هود » ، أو « سورة الأنبياء » ، أو « سورة الأحزاب » . وإذ كان القرآن كلُّه «متمتعاً» عند الصبى ، لأنه أهمل قراءته منذ أشهر ، فقد كان يكرَه أن يمتحنه سيِّدنا ، ويشترى صمت العريف بكلِّ شىء . وكَمْ دفع إلى العريف ما كان يملأ جيبه من خبز أو فطير أو تمر ! وكم دفع إليه هذا القرش الذى كان يُعطيه إياه أبوه من حين إلى حين ، والذى كان يُريد أن يشترى به أقراص النَّعْناع ! وكم احتال على أُمِّه ، ليأخذ منها قطعةً ضخمة من السُّكَّر ، حتى إذا وصل إلى الكتَّاب دفعها إلى العريف ، وإنه لَيشتهيها كلَّها أو بعضَها ، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمِس فيه السكَّر ، ثم يَمُصُّه مَصًّا شديداً ، ثم يزدرد السكَّر وقد ذاب أو كاد ! . . وكم نزل عن طعامه الذى كان يُحْمَل إليه من البيت

ظُهْرَ كلِّ يوم ، وإنه لشديد الجوع ، ليأكل العريف مكانه ؛ لئلَّا يخبر سيدنا بأنّ القرآن عنده « متعتع » . . .

على أنَّ هذه الصِّلات المستمرَّة لم تلبث أن ضَمِنَتْ له مودَّة العريف ؛ فقد اتَّخذه العريف صديقاً ، وأخذ يستصحبه إلى الجامع بعد الغداء ليصلِّي معه الظهر ، ثم أخذ يعتمد عليه ، ويَثِقُ به ، ويطلب إليه أن يُقْرِئَ القرآن بعضَ الصبيان ، أو يَسْمَعَه من بعض الذين أخذوا يُعيدون ويحفظون . وهنا كان صاحبنا يسلُك مع تلاميذه مَسْلَكَ العريف معه بالدِّقَّة : كان يُجْلِس الصبيان بين يديه ، ويأخذهم بالتلاوة ، ثم يتشاغل عنهم بالحديث مع أترابه ، حتى إذا فرَغ من حديثه ، التفت إليهم ، فإذا آنس منهم عبثاً أو إبطاءً أو اضطراباً ، فالنَّذير ، ثم الشتم ، ثم الضرب ، ثم إخبار العريف . والحقُّ أنه لم يكن أحسنَ حفظاً للقرآن من تلاميذه ولكنَّ العريف قد اتَّخذ معه هذه الخطّة ، فيجب أن يكون هو عريفاً حقًّا . وإذا كان العريف لا يَشْتِمُهُ ولا يضربه ولا يرفَع أمرَه إلى سيِّدنا ، فذلك لأنه يدفع ثمن ذلك كلِّه غالياً . وقد فهم الصِّبيانُ هذا

فأخذوا يدفعون له الثمن غالياً أيضاً ، وأخذ هو يستردّ بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف . على أن رِشْوَته كانت متنوِّعة ؛ فلم يكن محروماً فى بيته ، ولم يكن فى حاجة إلى الخبز ولا إلى التمر ولا إلى السكَّر ، ولم يكن يستطيع أن يَقْبَل «الفلوس» . وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن يُنفقها وحده ! فهو إن قَبِلها دلّ على نفسه وافتضح أمرُه . وإذن فقد كان عسيراً ، وكان إرضاؤه شاقًّا . وكان الصبيان يتفنَّنون فى إرضائه ، فيشترون له أقراص النعناع و « السكَّر النَّبات » و « اللُّبّ » و « الفول السودانى » ، وكان يتفضَّل بكثير من ذلك على العريف .

ولكنَّ لوناً من الرشوة خاصًّا كان يُعجبه ويَفْتِنه ، ويُشَجِّعه على أن يُهمل واجبه أشنع إهمال ، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب . فإذا استطاع الصبى أن يقصَّ عليه أُحدوثةً ، أو يشترى كتاباً من هذا الرجل الذى يتنقَّل بالكتُب فى قُرَى الريف ، أو يتلو عليه فصلًا من قصة « الزير سالم » أو « أبى زيد » ، فهو واثق بما شاء من رضاه ورِفْقِه ومُجاباته . وكان أمهرُ تلاميذه فى هذه ، صَبِيَّةً مكْفوفَةَ

البصر ، يقال لها نفيسة . أرسلها أهلُها إلى الكتَّاب لتحفَظ القرآن ، فحفِظته وأتقنتْ حفظه، ووَكلها[1] سيِّدنا إلى العريف، ووَكلها العريف إلى صاحبنا ، وأخذ صاحبنا يسلُك معها مسلك العريف معه . وكان أهلُ هذه الفتاة أغنياء ، ولكنهم من المُحْدَثين . كان أبوها حمَّاراً، ثم أصبح تاجراً مُثْرِياً ، وكان يُنفق على أهله من غير حساب ، ويُسْبِغ[2] عليهم سَعَةً غريبة من العيش . فلم تكن تنقطع الفلوس من يد نفيسة . وكانت أقدرَ الصبيان على تخيُّرِ الرِّشَا ، ثم كانت أحفظَهم للقصص ، وأقدرَهم على الِاختراع ، وأحفظَهم لألوان الغِناء المُفْرِح و « التعديد» المبكى ، وكانت تُحسن الغناء والتعديد معاً . وكانت غريبةَ الأطوار ، فى عقلها شيء مِنَ الِاضطراب ؛ فكانت تُلهى صاحبنا أكثرَ وقته بحديثها وتعديدها وأقاصيصها وألوان رشوتها . وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشى ، ويَخْدَعُ ويُخْدَعُ ، كان القرآن يَمَّحِى من صدره آيةً آيةً ، وسورةً سورةً ، حتى اليوم المحتوم . . . ويا لَه من يوم ! . . .

---

(١) وكلها إليه : تركها له وجعل أمرها إليه . (٢) أى يضفيها عليهم ويوسعها .

١٠

كان يومَ الأربعاء ، وكان صاحبُنا قد قضاه فَرِحًا مسروراً . زعم لسيِّدنا أوَّل النهار أنه قد أتمَّ الختمة ، ثم فَرَغ بعد ذلك لِاستماع القصص والأحاديث ، وعَبَثِ آخر النهار .

فلما انصرف من الكتَّاب لم يذهب إلى البيت ، وإنما ذهب مع جماعةٍ من أصحابه إلى الجامع ليصلِّي العصر . وكان يحبُّ الذَّهاب إلى الجامع ، والصعود فى المنارة ، والِاشتراكَ مع المؤذِّن فى التسليم (وهو النداء الذى يلى الأذان الشرعى) .

ذهب فى ذلك اليوم وصَعِد فى المنارة ، واشترك فى الأذان وصلَّى . وأراد أن يعود إلى البيت ، ولكنه افتقد نَعْله فلم يجدها كان قد وضعها إلى جانب المنارة ، فلما فرغ من الصلاة ذهب يلتمسها فإذا هى قد سُرِقتْ . أَحزنه ذلك بعضَ الشىء ، ولكنه كان فَرِحًا مبتهجاً هذا اليوم ، فلم يجزَع ولم يُقدِّر للأمر عاقبة ، وعاد إلى البيت حافياً . وما كان أبعدَ المسافةَ بين البيت



والجامع ! ولكن ذلك لم يَرُعْه[1] ، فكثيراً ما مشى حافياً .

دخل البيتَ ، وإذا الشيخُ فى المَنْظَرةِ كعادته يدعوه : وأين نعلاك ؟ فيجيب : نَسِيتُهما فى الكتَّاب . فلا يحفِل الشيخ بهذا الجواب ، ثم يُهمل الصبىّ حيناً ريثما يدخل فيتحدَّث إلى أُمّه وإخوته قليلًا ، ويأكل كِسرةً من الخبز ، كان من عادته أن يأكلها متى عاد من الكُتَّاب ، ثم يدعوه الشيخ ، فيُسرع إلى إجابته . فإذا استقرَّ به مكانه ، قال له أبوه : ماذا تلوتَ اليوم من القرآن ؟ فيُجيب : خَتَمْتُه وتلوتُ الأجزاءَ الستّةَ الأخيرة . قال الشيخ : وما زِلتَ تَحْفَظُهُ حفظاً جيداً ؟ قال نعم . قال الشيخ : فاقْرَأْ لى سورة سَبأ . وكان صاحبنا قد نَسِىَ سورة سبأ ، كما نسى غيرها من السُّوَر ، فلم يفتحِ الله عليه بحرف . قال الشيخ : فاقْرَأْ سورة فاطر ، فلم يفتح الله عليه بحرف . قال الشيخ فى هدوء وسخرية : وقد زعمتَ أنك ما زِلتَ تحفظ القرآن ! فاقرأ سورة يس . ففتح الله عليه بالآيات الأولى من هذه السورة ، ولكنّ لسانه لم يلبث أن

---

(١) لم يرعه : لم يفزعه ولم يخفه .

انعقد ، وريقه لم يلبث أن جَفَّ ، وأخذته رِعْدةٌ مُنْكَرَةٌ تصبَّب عَلَى أثرها فى وجهه عَرَقٌ بارد . قال الشيخ فى هدوء : قُمْ واجتهد فى أن تنسَى نعليك كلَّ يوم، فما أرى إلا أنك أضعتهما كما أضعتَ القرآن ، ولكنَّ لى مع سيِّدك شأناً آخر .

خرج صاحبنا من المنظرة مُنَكَّسَ الرأس مضطرباً يتعثَّر، ومضى فى طريقه حتى وصل إلى الكَرَار (والكَرَار : حجرة فى البيت كانت تُدَّخَرُ فيها ألوان الطعام ، وكان يُرَبَّى فيها الحمام) ، وكانت فى زاوية من زواياها القُرْمة (وهى قطعة ضخمة عريضة من الخَشَب كأنَّها جِذْعُ شجرة) كانت أُمُّه تقطع عليها اللحم . وكانَتْ تَدَعُ عَلَى هذه القرمة طائفة من السكاكين ، منها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الثقيل ، ومنها الخفيف .

مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكَرار ، وانعطف إلى الزاوية التى فيها القُرْمة ، وأهوى إلى الساطور ، وهو أغلظُ ما كان عليها من سِكِّين وأَحدُّه وأثقلُه ، فأخذه بيمناه وأهوى به إلى قفاه ضرباً ! ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه .

وأسرعت أُمُّه إليه ، وكانت قريبة منه لم تَحْفِل به حينما مرَّ بها، فإذا هو واقفٌ يضطرب والدم يسيل من قفاه ، والساطور مُلْقًى إلى جانبه . . . وما أسْرَعَما أَلْقتْ أُمُّه نظرةً إلى الْجُرْح ! وما أسرع ما عرفتْ أنه ليس شيئاً ! وما هى إلَّا أنِ انهالت عليه شتماً وتأنيباً ، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ فألقته فيها إلقاءً ، وانصرفت إلى عملها . ولبث صاحبنا فى مكانه لا يتحرَّك ولا يتكلَّم ولا يبكى ولا يفكر كأنه لاشىء ، وإخوته وأَخَواته من حوله يضطربون ويلعبون ، لا يحفِلون به ولا يلتفت هو إليهم .

وقَرُبتِ المغرب ، وإذا هو يُدْعَى ليجيب أباه ، فخرج خزْيانَ متعثِّراً حتى انتهى إلى المنظرة . فلم يسأله أبوه عن شىءٍ ، وإنما ابتدره سيِّدنا بهذا السؤال : ألم تقرأْ علىّ اليومَ الأجزاء الستَّة من القرآن ؟ قال بلى . قال : ألم تقرأْ علىَّ أمس سورةَ سبأ ؟ قال بلى . قال : فما بالُك لم تستطع أن تقرأها اليوم ؟ فلم يجبْ . قال سيِّدنا : فاقرَأْ سورة سبأ ، فلم يَفْتَحِ الله عليه منها بحرف . قال أبوه : فاقرأ السَّجْدة ، فلم يحْسِنْ شيئاً . هنا اشتدَّ

غضب الشيخ ، ولـكن على سيِّدنا لا على الصبيّ قال : وإذن فهو يذهب إلى الـكُتَّاب لا ليقرأ ولا ليحفَظ ، ولا لتُعْنَى به أو تلتفت إليه ، وإنما هو لَعِبٌ وعَبَثٌ ! ولقد عاد اليوم حافياً ، وزعم أنه نَسِىَ نعليه فى الـكُتَّاب . . وما أظنّ عنايتك بحفظه للقرآن ، إلا كعنايتك بمشيه حافياً أو ناعلًا . . . .

قال سيِّدنا : أُقْسِمُ بالله العظيم ثلاثاً ما أهملته يوماً . ولولا أنِّى خرجتُ اليوم من الـكُتَّاب قبل انصراف الصبيان لَما رجع حافياً . وإنه ليقرأ علىّ القرآن مَرَّةً فى كلِّ أُسبوع : ستَّة أجزاء فى كلِّ يوم ، أسمعها منهُ متى وصلتُ فى الصباح . قال الشيخ : لا أُصَدِّقُ من هذا شيئاً . قال سيِّدنا : امرأتى طالقٌ ثلاثاً ما كَذَبْتُكَ قَطُّ ، وما أنا بكاذبٍ الآن ، وإنى لأسمع له القرآن مَرَّةً فى كل أُسبوع . قال الشيخ: لا أُصَدِّق . قال سيِّدنا : أفتظنُّ أنَّ ما تدفَع إلىّ فى كل شَهر أَحَبُّ إلىَّ من امرأتى ؟ أم تظنّ أنِّى فى سبيل ما تدفَع إلىّ أستحلُّ الحرام وأعيش مع امرأةٍ طلَّقتها ثلاثاً بين يديك ؟ قال الشيخ : ذلك شىء لا شأن لى به ، ولـكنَّ هذا الصبىّ لن يذهب إلى

الكتَّاب منذ غد . ثم نَهَض فانصرَف ، ونهض سيِّدنا فانصرَف كئيباً محزوناً . وظلّ صاحبنا فى مكانه لا يفكِّر فى القرآن ولا فيما كان ، وإنما يفكِّر فى مَقْدِرة سيِّدنا على الكذب ، وفى هذا الطلاق المثلَّث الذى ألقاه كما يُلْقِى سيجارتَه متى فرغ من تدخينها !

ولم يَظْهَرِ الصبىُّ فى هذه الليلة على المائدة ، ومكث ثلاثة أيام يتجنَّب مجلس أبيه ويتجنّب المائدة . حتى إذا كان اليومُ الرابع دخل أبوه عليه فى المطبخ حيث كان يحبّ أن ينزوى إلى جانب الفُرْن ؛ فما زال يكلِّمه فى دُعابة وعَطْف ورِفْق حتى أنِسَ الصبىُّ إليه ، وانطلق وجهه بعد عُبوسه . وأخذه أبوه بيده فأجلسه مكانَه من المائدة ، وعُنِى به أثناء الغَداء عنايةً خاصَّة . حتى إذا فرغ الصبىُّ من طعامه ونَهض لينصرف ، قال أبوه هذه الجملة فى مُزاحٍ قاسٍ لم يَنْسَه قطُّ ، لأنه أَضحك منه إخوته جميعاً ، ولأنهم حفِظوها له ، وأَخذوا يَغيظونَه بها من حين إلى حين — قال له : « أَحَفِظْتَ القرآن ؟ »

١١

وانقطع الصبيّ عَنِ الـكُتّاب ، وانقطع سيِّدنا عنِ البيت والتمس الشيخُ فقيهاً آخر يختلف إلى[1] البيت فى كلِّ يوم ، فيتلو فيه سورة من القرآن مكانَ سيِّدنا ، ويُقرِئ الصبيَّ ساعةً أو ساعتين . وظَلَّ الصبيُّ حُرًّا يعبَث ويلعَب فى البيت متى انصرف عنه الفقيه الجديد . حتى إذا كان العصر أَقبل عليه أصحابه ورِفاقه مُنْصَرَفَهم[2] من الـكُتّاب . فيَقُصُّون عليه ما كان فى الـكُتّاب ، وهو يلهو بذلك ويعبَث بهم وبكُتّابهم وبسيِّدنا وبالعريف . وكان قد خُيِّل إليه أنَّ الأمر قدِ انبتَّ[3] بينه وبين الـكُتّاب ومَنْ فيه ، فلن يعودَ إليه ، ولن يرى الفقيه ولا العريف . فأطلق لسانَه فى الرجلين إطلاقاً شنيعاً ، وأخذ يُظْهِرُ من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يُخفيه ، وأخذ

---

(١) يختلف إلى البيت : يتردد عليه . (٢) منصرفهم : وقت انصرافهم .

(٣) انبت : انقطع .

يَلْعَنهما أمام الصبيان ويَصِفُهما بالكذِب والسَّرِقة والطمَع ، ويتحدَّث عنهما بأشياءَ مُنْكَرَةٍ ، كان يجد في التحدُّث بها شفاءً لنفسه ، ولذَّةً لهؤلاء الصبيان . وما له لا يُطلِقُ لسانَه في الرجلين ، وليس بينه وبين السَّفَر إلى القاهرة إلَّا شهرٌ واحد ؟ فسيعود أخوه الأزهريُّ من القاهرة بعد أيام ؛ حتى إذا قضى إجازتَه استصحبه إلى الأزهر ، حيث يُصْبِحُ مجاوراً ، وحيث تنقطع عنه أخبار الفقيه والعريف .

الحقُّ أنه كانَ سعيداً في هذه الأيام ، كان يشعُر بشيءٍ من التفوُّق على رفاقه وأترابه ؛ فهو لا يذهب إلى الكُتّاب كما يذهبون ، وإنما يسعى إليه الفقيه سعياً ، وسيسافر إلى القاهرة حيث الأزهر ، وحيث « سيِّدنا الحسين » ، وحيث « السيِّدة زينب » وغيرهما من الأولياء . وما كانت القاهرة عنده شيئاً آخر ، إنّما كانت مُسْتَقَرَّ الأزهر ومَشاهِدَ الأولياء والصالحين .

ولكنَّ هذه السعادة لم تَدُمْ إلَّا ريثما يَعْقُبُها شقاءٌ شنيع ؛ ذلك أنّ سيِّدنا لم يُطِقْ صبراً على هذه القطيعة ، ولم يستطع

أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجوّاد عليه ، فأخذ يتوسَّل بفلان وفلان إلى الشيخ . وما هي إلا أن لانت قناةُ[1] الشيخ ، وأمر الصبيَّ بالعودة إلى الكتَّاب متى أصبح . عاد كارهًا مقدِّراً ما سيلقاه من سيِّدنا وهو يُقرئه القرآن للمرة الثالثة . ولكنَّ الأمر لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ ؛ فقد كان الصبيان يَنْقُلون إلى الفقيه والعريف كلَّ ما يسمعون من صاحبهم . ولله أوقاتُ الغَداء طَوَالَ هذا الأُسبوع ، وما كان سيِّدنا ينال به الصبيَّ من لوم ، وما كان العريف يُعيد عليه من ألفاظه ، تلك التي كان يُطْلِقُ بها لسانَهُ مقدِّراً أنه لن يرى الرجلين !

في هذا الأُسبوع تعلَّم الصَّبيُّ الِاحتياطَ في اللَّفْظ ، وتعلم أنَّ من الخَطَل والحُمْق[2] الِاطمئنانَ إلى وعيد الرجال ، وما يأخذون أنفسَهم به من عَهدٍ . ألم يَكُنِ الشيخُ قد أَقسم لا يعود الصبيُّ إلى الكُتَّاب أبداً وها هو ذا قد عاد ! وأيُّ فَرْق بين الشيخ يُقْسم ويَحْنَثُ ، وبين سَيِّدِنا يُرْسِلُ الطلاقَ والأَيمانَ إرسالاً وهو يعلم أنه كاذب ؟ وهؤلاء الصِّبْيانُ يتحدَّثون إليه ، فيَشْتُمون

(١) لين القناة هنا : كناية عن الرضا .

(٢) الخطل والحمق : قلة العقل وفساده .

له الفقيه والعَرِيف ، ويُغْرُونه[1] بشَتْمهما ، حتَّى إذا ظَفِروا منه بذلك ، تقَرَّبوا به إلى الرَّجُلَيْن ، وابْتَغَوا[2] به إليهما الوسيلةَ . وهذه أُمّه تَضْحَك منه ، وتُغْرى به سَيِّدَنا حين أقبل يَتَحَدَّثُ إليها بما نَقَل إليه الصِّبْيان . وهؤلاء إخْوَتُه يَشْمَتون به ، ويُعيدون عليه مقالةَ سَيِّدِنا من حينٍ إلى حينٍ ، يَغيظُونه ويُثيرون سَخَطَه . ولكنّه كان يحتمل هذا كلَّه في صَبْرٍ وجَلَدٍ . وما له لا يَصْبِرُ ولا يتجلّد وليس بينه وبين فِراق هذه البِيئة[3] كلِّها إلا شهرٌ أو بعضُ شهر !

---

(١) أغراه به : أولعه به وحضه عليه . (٢) ابتغوا : طلبوا . والوسيلة : ما يقرب به إلى الغير . (٣) البيئة : (بالكسر) : اسم من تبوأ المكان إذا حله . ويراد بها المكان الذى يأويه الإنسان وكل ما يحيط به فيه .

١٢

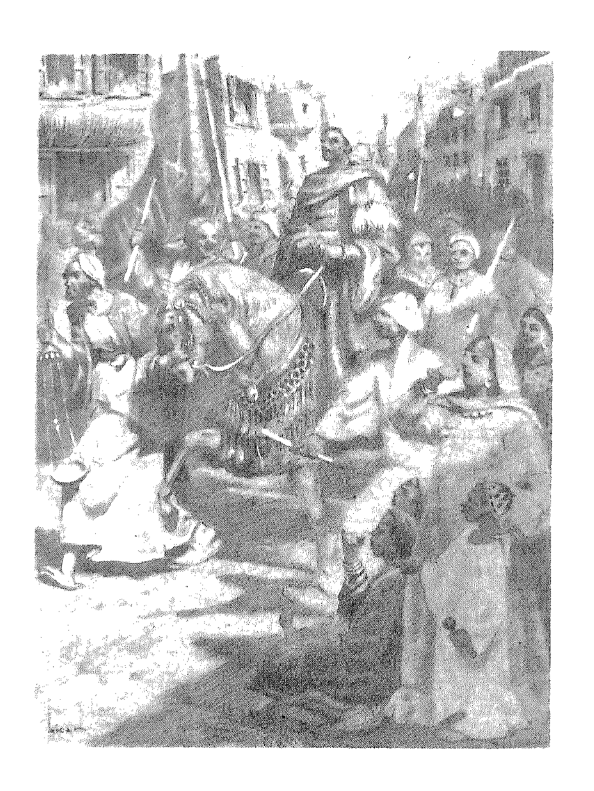
ولكنّ الشهرَ مَضَى ، ورَجَع الأزهريّ إلى القاهرة ، وظلّ صاحبنا حيث هو كما هو ، لم يُسافر إلى الأزهر ، ولم يتَّخِذِ العِمَّةَ ، ولم يَدْخُل فى جُبَّة أو قفطان .

كان لا يزال صغيراً ، ولم يكن من اليسير إرسالُه إلى القاهرة ، ولم يكن أخوه يحبُّ أن يحتمله ، فأشار بأنْ يبقَى حيث هو سنةً أُخرى ، فَبقِيَ ولم يَحْفِلْ أحدٌ برضاه أوغضبه .

على أنّ حياته تغيّرتْ بعضَ الشىء ؛ فقد أشار أَخوه الأزهريّ بأَنْ يقضى هذه السنةَ فى الِاستعداد للأزهر ، ودفع إليه كتابين يحفَظ أحدَهما جملة ، وَيَسْتظْهِرُ من الآخر صُحفاً مختلفة .

فأمَّا الكتاب الذى لم يكن بُدٌّ من حِفْظِه كلِّه فألْفِيَّةُ ابن مالك. وأمَّا الكتاب الآخَر فمجموعُ المتُون . وأوصى الأزهريُّ قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألْفِيّة ، حتى إذا فرَغ منها وأتقنها

إتقانًا ، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبةً ، بعضُها يسَمَّى الجَوْهَرةَ ، وبَعْضُها يسَّمى الخريدةَ ، وبعضُها يسَّمى السِّراجِيَة ، وبعضها يسمى الرَّحَبِيَّة . وبعضها يسمى لامِيَّةَ الأفعال . وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبيِّ مواقعَ تِيهٍ وإعجاب ؛ لأنه لا يفهَم لها معنًى ، ولأنه يُقَدِّر أنها تدلُّ على العلم ، ولأنه يعلم أنّ أخاه الأزهريَّ قد حَفِظَها وفَهِمها ، فأصبح عالمًا ، وظفِر بهذه المكانة الممتازة فى نفس أبويه وإخوته وأهل القرية جميعاً . ألم يكونوا جميعاً يتحدَّثون بعَوْدته قبل أن يعود بشهر ، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فَرِحينَ مبتهجين متلطِّفين ! ألم يَكُنِ الشيخ يشرَب كلامه شُرْبًا ، ويُعيده على الناس فى إعجاب وفخار ! ألم يكن أهلُ القرية يتوسّلون إليه أن يقرأ لهم درسًا فى التوحيد أو الفقه ! وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه ، مُلِحًّا مستعطفًا مسرفًا فى الوعد ، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأمانىّ ، لِيُلْقِيَ على الناس خُطْبَةَ الجمعة ! ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبىّ ، ماذا لَقِيَ الأزهرىُّ من إكرامٍ وحفاوةٍ ، ومن



تَجِـلّة وإكبار! كانوا قد اشتَرَوْا له قفطانًا جديداً، وجُبّة جديدة، وطربوشًا جديداً، و «مركوبًا» جديداً. وكانو يتحدَّثون بهذا اليوم وماسيكون فيه قبل أن يُظلّهم[1] بأيام. حتى إذا أقبل هذا اليومُ وانتصف، أسرعتِ الأُسرة إلى طَعامها فلم تُصِبْ منه إلا قليلا، ولبس الفتى الأزهريُّ ثيابَه الجديدة، واتّخذ فى هذا اليوم عِمامةً خضراء، وألقى على كتفيه شالاً من الـكَشْمير، وأمُّه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جَذْلانَ مضطربا. حتى إذا تَمَّ للفتى من زِيِّه وهَيْئته ما كان يُريد، خرج فإذا فرسٌ ينتظره بالباب، وإذا رجالٌ يحملونه فيضعونه على السَّرْج، وإذا قومٌ يَكْتَنِفُونه[2] من يمينٍ ومن شمال، وآخرون يَسْعَوْنَ بين يديه، وآخرون يمشُون من خَلْفه، وإذا البنادق تُطْلَقُ فى الفضاء وإذا النساء يُزَغْرِدْنَ من كلِّ ناحية، وإذا الجوُّ يتأرَّج[3] بعَرْف البخُور، وإذا الأصوات ترتفع متغنِّية بمدح النبيِّ، وإذا هذا الحَفْل كله يتحرّك فى بُطْء وكأنما تتحرك

---

(١) يظلهم : يأتيهم ويغشاهم .

(٢) يكتفونه : يحيطون به من كل جانب .

(٣) تأرج الجو والمكان : فاحت فيه رائحة طيبة ذكية . والعرف : الرائحة .

معه الأرض وما عليها من دُور . كلُّ ذلك لأنَّ هذا الفتى الأزهريَّ قد اتُّخِذ فى اليوم خليفة ، فهو يُطاف به فى المدينة وما حولها من القُرَى فى هذا المهْرَجانِ الباهر . وما بالُه اتُّخذ خليفة دون غيره من الشُّبانِ ؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألْفِيَّةَ والجوهرة والخريدة ! فلِمَ لا يبتهجُ الصبيُّ حين يرى أنْ سَيقْرَأ من العلم ما قرأ أخوه ، وأن سيمتاز من رِفاقه وأترابه بحفظ الألفيَّة والجوهرة والخريدة ؟ !

وكم كان فَرِحاً مختالا حين غدا إلى الكُتَّاب يوم السبت وفى يده نسخةٌ من «الألفيَّة» ! لقد رفعته هذه النسخةُ درَجات ، وإن كانت هـذه النسخة ضئيلةً قَذِرةً سيئة الْجِلْد ، ولكنَّها على ضآلتها وقَذارتها ، كانت تعدِل عنده خمسين مُصْحَفاً من هذه المصاحف التى كان يحملها أترابه .

المصحف ! لقد حفِظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا . وكثير من الشبَّان يحفَظونه فلا يحفِل بهم أحدٌ ، ولا يُنْتَخبُون خلفاءَ يوم المولد النبوىّ . . .

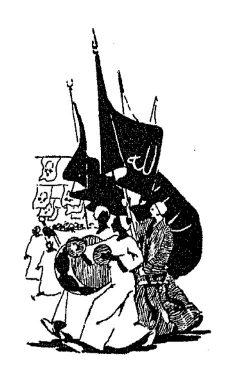
ولكن الألفيَّة ! .. وما أدراك ما الألفيَّة ! وحَسْبُكَ أنَّ

سيِّدنا لا يحفَظ منها حرفاً ، وحَسْبُكَ أَنَّ العريف لا يُحْسِنُ أن يقرأ الأبيات الأولى منها . والألفيَّة شِعْرٌ ، وليس فى المصحف شعر.

الحقّ أنه ابتهج بهذا البيت :

قال محمدٌ هو ابنُ مالكِ أَحْمَدُ رَبِّى اللهَ خَيْرَ مالكِ

ابتهاجًا لم يشعُر بشىء مثله أمام أيِّ سورة من سور القرآن .



وكيف لا يبتهج وقد أحسَّ منذ اليوم الأوَّل أنه ارتفع درجات؛ أصبح «سيِّدنا» لا يستطيع أن يُشْرِفَ على حفظه للألفيَّة ولا أن يُقْرِئه إيَّاها، بل ضاق الكُتَّاب كله بالألفيَّة. وكُلِّفَ الصبيُّ أن يذهب فى كلِّ يوم إلى المحكمة الشرعية؛ ليقرأ على القاضى ما يريد أن يحفَظه من الألفيَّة. القاضى عالمٌ من علماء الأزهر، أكبرُ من أخيه الأزهرىّ، وإن كان أبوه لا يُؤْمِن بذلك، ولا يرى أَنَّ القاضى يُكافئ ابنه. وهو على كلِّ حال عالمٌ من علماء الأزهر، وهو قاضى الشَّرْع (بقاف ضخمة وراء مفخَّمة). وهو فى المحكمة لا فى الكُتَّاب. وهو يجلس على دَكَّة مرتفعة، وقد وُضِعَتْ عليها الطَّنَافِس والوسائد، لا تُقاسُ إليها دَكَّة سيدنا، وليس حولها نِعالٌ مُرَقَّعة، وعلى بابه رجلان يقومان مقامَ الحاجب ويسمِّيهما الناس هذا الإسْمَ البديع، الذى لم يكن يخلو من هيبة: «الرُّسُل».

نعم ! كان يجب على الصبيِّ أن يذهب إلى المحكمة فى كل صباح ، فيقرأَ على القاضى باباً من أبواب الألفية . وكم كان القاضى يحْسِن القراءة ! وكم كان يملأ فَمَه بالقـاف والراء ! وكم كان صوتُه يتهدَّج[1] بقول ابن مالك :

كلامُنا لفظٌ مُفيدٌ كاسْتَقِمْ * واسْمٌ وفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ
وَاحِدُه كلمةٌ والقوْلُ عَمّ * وكِلْمَةٌ بها كلامٌ قد يُؤَمّْ

ولقدِ استطاع القاضى أن يُؤَثِّر فى نفس الصبيِّ ، ويملأه تواضعاً حين قرأ هذه الأبيات :

وتَقتَضِى رِضاً بغير سُخْطٍ * فائقةً أَلفِيَّةَ ابنِ مُعْطِى
وهْوَ بِسَبْقٍ حائزٌ تَفضيلاَ * مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِيَ الجميلاَ
واللهُ يَقْضِى بِهِباتٍ وَافرهْ * لِى ولَهُ فى دَرَجاتِ الآخِرَهْ

قرأ القاضى هذه الأبيات بصوت يحطمه البكاء حطما ، ثم قال للصبيّ : مَنْ تواضع لله رَفَعه ، أتفهَم هذه الأبيـات ؟ قال الصبيُّ لا . قال القاضى : إنّ المؤلِّفَ رحمه الله تعالى ، عند ما بدأ فى نَظْم أَلْفِيَّته اغترّ وأخذه الـكِبْر فقال : « فائقة ألفية ابن معطى » . فلمَّـا كان الليلُ رأَى فيما يرى النائم . أنَّ

---

(١) تهدج صوته : تقطع فى ارتعاش .

ابن معطٍ قد أقبل يُعاتبه عتاباً شديداً . فلمَّـا أفاق من نومه أصلَح من الغُرور وقال : « وهو بسبق حائز تفضيلا » .

وكم كان الشيخ مبتهجاً فَرِحًا حين عاد إليه الصبىُّ عصرَ ذلك اليوم ، فقصَّ عليه ما سمع من القاضى ، وقرأ عليه الأبياتَ الأولى من الألفيَّة ! فكان يقطع هذه الأبيات بهذه الكلمة التى يعبِّر بها الناس عن الاِسْتحسان : « الله ! الله ! » .

على أنّ لكلِّ شىء حدًّا ؛ فقد مضى صاحبنا فى حفظ الألفيَّة فَرِحاً مبتهجاً حتى انتهى إلى باب المبتدأ ، ثُم فَتَرتْ هِمَّتُه . وكان أبوه يسأله عصرَ كلَّ يوم : هل ذهبتَ إلى المحكمة ؟ فيجيب : نعم . فكم حفظت ؟ فيقرأ له ما حفِظ .

ولكنَّ الأمر ثَقُل عليه منذ باب المبتدأ ، فأخذ يحفَظ ويذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً ، حتى وصل إلى باب المفعول المُطْلَق ، ثم لم يستطع أن يتقدَّم خُطْوةً قصيرةً ولا طويلة . ولبث يذهب إلى المحكمة فى كلِّ يوم ، ويقرأ على القاضى فصلاً من فصول الألفيّة ، حتى إذا عاد إلى

الكُتَّاب ألقى الألفيَّة فى ناحيـة ، وانصرف إلى عَبَثه ولَعِبه ، وإلى قراءة القصص والأحاديث .

فإذا كان العصرُ وسأله أبوه : هل ذهبتَ إلى المحكمة ؟ أَجاب : نعم .

— وكم حفِظتَ من بيت ؟

— أجاب : عشرين .

— من أىّ باب ؟

— من باب الإضافة ، أو من باب النَّعْت ، أو من باب جمع التكسير .

فإذا قال له : اقرَأْ علىّ ما حفظت ، قرأَ عليه عشرين بيتاً من المائتين الأولين ، مَرّةً من المُعْرَب والمَبْنِىِّ ، وأخرى من النَّكِرَة والمَعْرِفة ، وثالثةً من المبتدأ والخبر ، والشيخ لا يفهم شيئاً ، ولا يُلاحظ أنّ ابنه يخدَعه ؛ وإنما يكتفى بأن يسمع كلاماً منظوماً ، وهو مطمئن إلى القاضى . ومن غريب الأمر أنّ الشيخ لم يفكِّر مرّة واحدة فى أن يَفْتَحَ الألفيَّة ، ويُقابلَ على الصبىِّ وهو يقرأ . ولو قد فعل يوماً من الأيَّام ، لكانت

للصبيِّ قصةٌ كقصته مع سورة الشعراء ، أو سبأ ، أو فاطر . .

على أنّ الصبيَّ تعرَّض لهذا الخطر مرَّةً . ولولا أنَّ أُمَّه شَفَعَتْ فيه لكان له مع أبيه موقفٌ مشهود .

كان له أخ يختلف إلى المدارس المدنيَّة ، فعاد من القاهرة ليقضى فصلَ الصيف . واتَّفق أنه حضر هذا الامتحان اليوميَّ أياماً متَّصلة ؛ فسمِع الشيخَ يسأل الصبيَّ : أيَّ بابٍ قرأتَ ؟ فيُجيب الصبى : بابَ العطْف مثلًا . فإذا طَلب إليه أن يُعيد ما قرأ ، أعاد عليه باب العَلَم أو باب الصِّلةِ والموصول .

سكت الشابُّ فى أوَّل يوم وفى اليوم الذى يليه . فلمَّا كثُر ذلك انتظر حتى انصرف الشيخ ، وقال للصبيِّ أمام أُمِّه : إنّك تخدع أباك وتكذِب عليه ، وتلعَب فى الكتَّاب ، ولا تحفَظ من الألفيَّة شيئاً . . . . قال الصبىُّ : إنَّك كاذب ! وما أنت وذاك ؟ وإنما الألفيَّة للأزهريين لا لأبناء المدارس ! وسَلِ القاضىَ يُنبئْك بأنِّى أذهب إلى المحكمة فى كلِّ يوم . قال الشابُّ : أىَّ باب حفظتَ اليوم ؟ قال الصبىُّ : بابَ كذا . قال الشابُّ : ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك ،

وإنما قرأتَ عليه باب كذا ، وهاتِ نسخةَ الألفيَّة أَمْتَحِنْك فيها . بُهِتَ الصبيُّ وظهر عليه الوُجوم . وهمّ الشابُّ أن يَقُصَّ القصة على الشيخ ، ولكنَّ أُمّه توسَّلت إليه . وكان الشاب رفيقاً بأمّه رءوفاً بأخيه ، فسكت . وظلّ الشيخ على جهله حتى عاد الأزهريُّ . فلمَّا عاد امتحنَ الصبيَّ وما هى إلَّا أن عرَف جليَّة الأمر ، فلم يَغْضَبْ ولم يُنْذِرْ ولم يُخْبِرِ الشيخَ ، وإنما أمر الصبيَّ أَن ينقطع عن الكتَّاب والمحكمة . وأحفظه الألفيَّة كلَّها فى عشرة أيام .

للعلم فى القُرَى ومُدُنِ الأقاليم جلالٌ ليس مثلُه فى العاصمة ولا بيئاتها العامية المختلفة . وليس فى هذا شئ من العَجب ولا من الغرابة ، وإنما هو قانون العَرْض والطّلَب ، يجرى على العلم كما يجرى على غيره مما يُباع ويُشْتَرَى . فبينما يروح العلماء ويغدون فى القاهرة لا يحفِل بهم أحدٌ ، أو لا يكاد يحفِل بهم أحد ، وبينما يقول العلماء فيُكْثِرُون فى القول ويتصرّفون فى فنونه ، دون أن يلتفت إليهم أَحدٌ غير تلاميذهم فى القاهرة ، ترى علماء الرِّيف ، وأَشباح القرى ومدن الأقاليم ، يغْدُون ويروحون فى جلال ومَهابةٍ ، ويقولون فيستمع لهم الناس مع شئ من الإكبار مُؤَثّرٍ جَذّاب . وكان صاحبنا متأثراً بنفسيّة الريف ، يُكبِرُ العلماء كما يُكبرهم الريفيُّون ، ويكاد يؤمن بأنهم فُطِرُوا[1] من طِينةٍ نقيّة ممتازة غير الطينة التى فُطِر منها النَّاسُ جميعاً .

---

(١) فطروا : خلقوا .

وكان يسمع لهم وهم يتكلّمون ، فيأخذه شيء من الإعجاب والدَّهَش ، حاول أن يجد مثله في القاهرة أمامَ كبار العلماء وجِلّة الشيوخ ، فلم يُوفَّقْ .

كان علماء المدينة ثلاثةً أو أربعة ؛ قد تقسَّموا فيما بينهم إعجابَ الناس ومودَّتهم . فأمَّا أحدهم فكان كاتباً في المحكمة الشرعية ، قصيراً ضخماً ، غليظَ الصوت جَهْوَريَّه ، يمتلئ شِدْقُه بالألفاظ حين يتكلّم ، فتخرج إليك هذه الألفاظُ ضخمة كصاحبها ، غليظة كصاحبها ؛ وتصْدِمُك معانيها كما تَصْدِمُك مَقاطِعها . وكان هذا الشيخ من الذين لم يُفلِحُوا في الأزهر ؛ قَضى فيه ما شاء الله أن يقضى من السنين ، فلم يُوَفَّقْ للعالميّة ولا للقضاء ، فقَنِع بمنْصِبِ الكاتب في المحكمة ، على حين كان أخوه قاضياً ممتازاً ، قد جُعِل إليه قضاء أحد الأقاليم . ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس في مَجْلِسٍ إلا فَخَر بأخيه ، وذم القاضيَ الذى هو معه . كان حَنَفيَّ المذهب ، وكان أتباعُ أبي حنيفة في المدينة قليلين ، أوْ لم يكن لأبي حنيفة في المدينة أتباع ؛ فكان ذلك يَغيظه ويُحْنِقُه على خصومه العلماء الآخرين ،



الذين كانوا يتبعون الشافعيَّ أو مالكاً ، ويجدُون فى أهل المدينة صَدًى لعلمهم ، وطُلّاباً للفَتْوَى عندهم . فكان لا يَدَعُ فُرْصَةً إلّا مجَّد فيها فِقْهَ أبى حنيفة ، وغضَّ فيها من فقه مالك والشافعىّ . وأهلُ الريف مَكَرَةٌ أذكياء ؛ فلم يكن يخفَى عليهم أنَّ الشيخ إنما يقول ما يقول ، ويأتى ما يأتى من الأمر ، متأثِّرًا بالْحِقْد والْمَوْجِدة[1] ، فكانوا يعطِفون عليه ، ويضحكون منه . وكانت المنافسة شديدةً عنيفةً بين هذا الشيخ وبين الفتى الأزهرىّ . كان الفتى الأزهرىّ يُنْتَخَبُ خليفةً فى كلِّ سنة ، فغاظهُ أن يُنْتَخَبَ هذا الفتى خليفةً دونه . ولمَّا تحدَّث الناسُ أنَّ الفتى سيُلْقى خُطبة الجمعة سمِع الشيخ هذا الحديث ولم يَقُلْ شيئاً . حتى إذا كان يومُ الجمعة وامتلأ المسجد بالناس ، وأقبل الفتى يُريد أن يصعَد المنبر ، نَهض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام ، وقال فى صوت سمِعه الناس : إن هذا الشابَّ حديث السِّنِّ ، وما ينبغى له أن يصعَد المنبر ، ولا أن يَخطُب ، ولا أن يُصلِّى بالناس وفيهم الشيوخ وأصحاب الأسنان . ولئن خلّيت بينه وبين المنبر والصلاةِ لأَنصَرِفَنَّ . ثم التفتَ إلى الناس وقال :

---

(١) الموجدة : الغضب .

ومَنْ كان منكم حريصاً على ألّا تبطُلَ صَلاتُهُ فَلْيَتْبَعْنِى . سمع الناس هذا فاضطربوا، وكادت تقع بينهم الفتنة ، لولا أنْ نهض الإمامُ فَخَطَبَهم وصلَّى بهم ، وحيل الفتى وبين المِنْبَر هذا العام . ومع ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه فى حِفْظِ الْخُطبة واستعدَّ لهذا الموقف أيَّاماً متصلة ، وتلا الخطبةَ على أبيه غير مَرَّة . وكان أبوه ينتظر هذه الساعةَ أشدَّ ما يكون إليها شوقاً، وأعظمَ ما يكون بها ابتهاجاً ، وكانت أُمُّه مشفقة تخاف عليه العين . فما كاد الفتى يخرُجِ إلى المسجد ذلك اليوم، حتى نهضتْ إلى جَمْرٍ وضعته فى إناء وأخذتْ تُلْقِى فيه ضُروباً من البَخُور ، وتطوفُ به البيت حُجرةً حُجرةً . تقِفُ فى كلٍّ حجرة لَحَظاتٍ وتُهَمْهِمُ بكلمات . وظلَّتْ كذلك حتى عاد ابنها ، فإذا هى تلقاه من وراء الباب مُبخِّرةً مُهَمْهِمةً ، وإذا الشيخ مُغْضَبٌ يلعَن هذا الرجل الذى أكل الحسدُ قلبه ، فحال بين ابنه وبين المنبر والصلاة .

وكان فى المدينة عالم آخر شافعىٌّ ، كان إمام المسجد وصاحبَ الْخُطبة والصلاةِ ، وكان معروفاً بالتُّقَى والوَرَع ، يذهب الناس فى إكباره وإجلاله إلى حدٍّ يُشْبِه التقديسِ : كانوا

يتبركون به ، ويلتمسون عنده شفاء مرْضاهم وقضاء حاجاتهم . وكأنه كان يرى في نفسه شيئاً من الولاية . وظلَّ أهل المدينة بعد موته سنينَ يذكرونه بالخير ، ويتحدَّثون مقتنعين بأنه عند ما أُنزل فى قبره قال بصوتٍ سمعه المشيِّعون جميعاً : اللَّهمَّ اجْعَلْهُ مَنزِلًا مُبارَكاً . وكانوا يتحدَّثونَ بما رأوا فيما يرى النائم من حظّ هذا الرجل عند الله ، وما أُعِدَّ له فى الجنة من نعيم .

وشيخٌ ثالث كان فى المدينة ، وكان مالكىّ المذهب ، ولم يكن ينقطع للعلم ولا يتَّخِذُه حِرْفةً ، وإنما كان يعمَل فى الأرض ويَتَّجِر ، ويختلف إلى المسجد فيؤدِّى الخمس ، ويجلس إلى الناس من حينٍ إلى حينٍ ، فيقرأ لهم الحديثَ ويُفَقِّههم فى الدِّين متواضعاً غيرَ تيَّاه ولا فخور ، ولم يكن يحفِل به إلا الأقلُّون عدداً .

هؤلاء هم العلماء . ولكنَّ علماء آخرين كانوا مُنْبَثِّين[1] فى هذه المدينة وقُرَاها وريفها ، ولم يكونوا أقلَّ من هؤلاء العلماء الرسميين تأثيراً فى دَهْماءِ الناس وتسلُّطاً على عقولهم :

(١) منبثين : منتشرين .

منهم هذا الحاجّ . . . الخيَّاط الذى كان دُكَّانه يكاد يُقابِل الكتَّاب ، والذى كان الناس مجمعين على وصفه بالبُخْل والشحّ ، والذى كان مُتَّصِلا بشيْخٍ من كبار أهل الطرقُ ، والذى كان يزدرى[1] العلماء جميعاً ؛ لأنهم يأخذون عِلْمَهم من الكُتُب لا عن الشيوخ ، والذى كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللَّدُنِّى ، الذى يهبِط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب ، بل دون أن تقرأ أو تكتُب .

ومنهم هذا الشيخ . . الذى كان فى أوَّل أمره حَمَّاراً يَنْقُلُ للناس بضائعهم وأمتعتهم ، ثم أصبح تاجراً ، واقتصرتْ حُمُره على نقل تجارته ، والذى كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامَى ، وأثرَى[2] على حساب الضعفاء ، والذى كان يُكثِرُ من ترديد هذه الآية وتفسيرها : «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» ، والذى كان يكرَهُ الصلاةَ فى المسجد الجامع ؛ لأنه كان يكرَه الإمامَ ومَنْ إليه من العلماء ، ويُؤْثِر الصلاةَ فى مسجد صغير لا قيمةَ له ولا مكانة .

---

(١) ازدراه : احتقره واستخف به . (٢) أثرى : كثر ماله .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذى لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يُحْسِنُ قراءة الفاتحة ، ولكنَّه كان شاذِليًّا من أصحاب الطريق ، كان يجمَع الناسَ إلى الذِّكْر ، ويُفتيهم فى أمور دينهم ودنياهم .

ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرءون القرآن ويُقْرِئونه للناس ، والذين كانوا يُمَيِّزون أنفسهم من العلماء ويتسمَّوْن « حَمَلةَ كِتَابِ الله » . والذين كانوا يَتَّصِلون بدَهْماء الناس والنساء منهم خاصَّة . كانت جُمْهَرَتُهم من المكفوفين ، فكانوا يدخلون البيوت يَتْلُون فيها القرآن . وكان النساء يتحدَّثن إليهم ، ويَسْتَفْتِينَهم فى أمور الصَّوْم والصلاة وما إلى ذلك من أمورهن . وكان لهؤلاء الفقهاء علمٌ مخالف كلّ المخالفة لعلم العلماء الذين يأخذون علمَهم من الكتب ، والذين بينهم وبين الأزهر سببٌ قوىٌّ أو ضعيف وكان عِلمهُم مُخَالِفاً أيضاً لعلم أصحاب الطرُق وأهل العلم اللدنّى ، كانوا يأخذون علمهم من القرآن مباشرةً ، يَفهَمونه كما يستطيعون ، لا كما هو ولا كما ينبغى أن يُفْهَمَ . يفهَمونه كما كان يفهمه سيِّدنا ، وكان من

أذكى الفقهاء وأشدِّهم علماً ، وأقدرهم على التأويل . سأله الصبيّ ذات يوم : ما معنى قول الله تعالى : « وخَلَقْنا كم أَطْوَاراً » ؟ فأجاب هادئًا مطمئناً : خلقنا كم كالثيران لا تعقلون شيئاً . أو يفهمونه كما يفهمه جَدُّ هذا الصبيّ نفسه ، وكان من أحفظ الناس للقرآن وأبْرَعِهم فى فَهْمه وتفسيره وتأويله . سأله حفيده ذاتَ يوم عن قول الله تعالى : « ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وإنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا والآخرةِ » فقال : « على حرْفٍ دَكّة ، على حَرْفِ مَصْطَبَة . . . فإن أصابه خيرٌ فهو مطمئن فى مكانه ، وإن أصابه شرٌّ انكفأ على وجهه » .

وكان صبيّنا يختلف[1] بين هؤلاء العلماء جميعاً ، ويأخذ عنهم جميعاً ، حتى اجتمع له من ذلك مقدارٌ من العلم ضخمٌ مختلفٌ مضطربٌ متناقض ، ما أحسَبُ إلا أنه عَمِلَ عملاً غيرَ قليلٍ فى تكوين عَقْله الذى لم يَخْلُ من اضطراب واختلاف وتناقض .

---

(١) يختلف هنا : يتردد .

١٥

وشيوخُ الطريق ، وما شيوخُ الطريق ! ! كانوا كثيرين مُنْبَثِّين[١] فى أقطار الأرض، لا تكاد تخلو منهم المدينة أُسبوعاً وكانت مذاهبهم مختلفةً ، وكانوا قد تقسَّموا الناسَ فيما بينهم فجعلوهم شِيَعاً ، وفرَّقوا أهواءهم تفريقاً عظيماً . وكانتِ المنافسة حادَّةً فى الإقليم بين أُسرتين من أصحاب الطريق ، لإحداهما أعلاه ، وللأُخرى أَسْفَلُه .

وإذ كان أهلُ الإقليم ينتقلون ولا يأبَوْن على أنفسهم الهجرة من قريةٍ إلى قرية ومن مدينةٍ إلى مدينة داخلَ الإقليم ، فقد كان يتَّفق أَن ينزل أتباع إحدى الأُسرتين حيث تتسلَّط الأُسرة الأُخرى . وكان زعماء الأُسرتين يتنقَّلون فى الإقليم يزورون أتباعهم وأشياعهم . ولله ما كان يحدُث من الخصومات يوم يهبِطُ صاحب العالية إلى السافلة ، أو يصعَد

(١) أي منتشرين فى نواحى الأرض .

صاحب السافلة إلى العالية ! وكان أبو الصبيّ من أتباع صاحب العالية ، أخذ عنه العهد ، وأخذ عنه أبوه من قبلُ . وكانت أمُّ الصبيِّ من أتباع صاحب العالية أيضاً ، بل كان أبوها من أنصاره وحَوَارِيِّيه [١] المُقرَّبين إليه . ومات صاحب العالية وخَلَفه على الطريق ابنَه الحاجّ . . . وكان أنشطَ من أبيه ، وأقدَر على الكيد واللُّؤم ، وأنهضَ للخصومة . كان أقربَ من أبيه إلى الدنيا ، وأبعدَ من أبيه عن الدين .

وكان أبو الصبيِّ قد هَبَط إلى السافلة واستقرَّ فيها ، فكانت لصاحب العالية عادةٌ أن يزوره مَرَّةً فى كل سنة . وكان إذا أقبل لَمْ يُقْبِلْ وحده ولَمْ يُقْبِلْ فى نَفَرٍ قليل ، وإنما أقبل فى جيش ضخم ، إن لَمْ يَبْلغِ المائة فليس ينحطّ عنها إلا قليلا . ولم يكن يَتَّخِذ قُطُرَ السكّة الحديدية ولا سُفُنَ النيل ، وإنما كان يتخذ الجيادَ والبِغال والحمير ، يسيرُ ومَنْ حولِه أصحابه ، فيمرُّون بالقُرَى والدساكر ، ينزلون ويرحَلون فى أبَّهة وضخامة ، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم ، مُتَحَدِّين [٢] حيث لخصومهم شيءٌ من القوة . وكانوا إذا زاروا أُسرة

(١) الحوارى : الناصر . (٢) التحدى : طلب المباراة الغلبة .

الصبيّ ، أقبلوا حتى ينزلوا ، فإذا الشارعُ ممتلىء بهم وبخيلهم وبغالهم وحُمُرهم ، قد أخذوه من القناة إلى أقصاه الجنوبىّ ، وإذا الشاء تُذبَح ، وإذا السُمُط[1] ممدودةٌ فى الشارع ، وإذا هم إلى طعامهم فى شرَهٍ لا يعدله شرَهٌ ، والشيخ جالس فى المنظرة ومن حوله أصفياؤه وأولياؤه ، وبين يديه صاحب البيت وأخِصَّاؤه يأتمرون أمرَه[2] . فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه ، فنام حيث هو ، ثم نهض فتوضّأ . فانظُرْ إلى الناس يَسْتَبِقون ويختصمون أيُّهم يصُبّ عليه الماء ! فإذا فرغ ، فانظرْ إليهم يستبقون ويختصمون أيُّهم يُصِيبُ من وَضُوء[3] الشيخ جَرْعةً ! والشيخ عنهم فى شغل ، يصلّى فيُطيل الصلاة ، ويدعو فيُطيل الدعاء . حتى إذا فرغ من هذا كلِّه جلس للناس وهم يتقاطرون عليه ، منهم من يُقبِّل يده وينصرف خاشعاً ، ومنهم من يتحدَّث إليه لحظةً أو لحظاتٍ ، ومنهم من يسأله حاجةً ، والشيخ يُجيب أولئك وهؤلاء بألفاظ غريبة غامضة ،

---

(١) السمط : جمع سماط (بالكسر) ، وهو ما يبسط ليوضع عليه الطعام .
(٢) ائتمر أمره : امتثله . (٣) الوضوء (بفتح الواو) : الماء الذى يتوضأ به .

يذهبون فى فهمها وتأويلها المذاهب .

أُدخل عليه الصبيُّ ، فمَسَح رأسه وتلا قولَ الله تعالى : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » . من ذلك اليوم اقتنع أبو الصبيِّ بأن سيكون لابنه شأن . فإذا صُلِّيتِ المغربُ مُدَّتِ الموائد وأكل الناس ثم تُصَلَّى العِشاء ثم يُنْصَبُ المجلس .

ونَصْبُ المجلس عبارةٌ عن اجتماع الناس إلى حَلْقة الذِّكر ، يذكرون الله قاعدين ساكنين ، ثم تتحرَّك رؤوسهم وترتفع أصواتهم قليلًا ، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلًا ، ثم تنبَثُّ فى أجسامهم رِعدة فإذا هم جميعاً وقوفٌ ، قد دُفِعوا فى الهواء كأنما حرَّكهم لولبٌ ، وقد انبثَّ فى الْحَلقة شيوخ يُنشِدون شعر ابن الفارض وما يُشبهه من الشعر . وكان لهذا الشيخ خاصَّةً كَلَفٌ بقصيدة معروفة ، فيها ذكر الإسراء والمِعراج ، أوَّلُها :

مِنْ مكَّةَ والبيتِ الأمْجَدْ * لِلقُدْسِ سَرَى ليلًا أحْمَدْ

كان الشيوخ يرتِّلونها ترتيلًا ، وكان الذاكرون يحرِّكون

أجسامهم عَلَى هذا الترتيل ، ينحنون ويستقيمون كأنما يُرَقِّصهم هؤلاء الشيوخ ترقيصاً .

ومهما يَنْسَ الصبيُّ فلن ينسَى ليلةً غلِط فيها أحدُ المنشدين فوضع لفظاً مكان لفظٍ من القصيدة ، وإذا الشيخ قد ثار وفار ، وأرغى وأزْبَدَ[1] ، وصاح بملء صوته : يابنى الكلاب ! لَعَنَ اللهُ آباءكم وآباء آبائكم وآباء آباء آبائكم إلى آدم ! أتريدون أن تُخربوا بيت الرجل !

ومهما ينسَ الصبيّ فلن ينسى تأثيرَ هذه الغَضْبَةِ فى نفوسِ الذاكرين وفى نفوس الناس مِنْ حولِهم ، وكان الناس قَدِ اقتنعوا بأن الغَلَطَ فى هــذه القصيدة مصدرُ شُؤْم لا يُشْبهه شؤم . وأظهر أبو الصبيِّ تأثُّراً وفزعاً ، ثم اطمئناناً وهدوءا .

فلما انصرف الشيخ من الغد وتذاكرتِ الأسرة ما كان من أمره ، وما كان من قِصَّته مع الذاكرين والمُنْشِدين ، ضَحِك صاحب البيت ضحكةً لم يَشُكَّ الصبيُّ بعدها فى أنَّ إيمان أبيه بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والاِزْدراء . . . نعمْ من الشك والاِزدراء ! فقد كان طَمَعُ الشيخ وحِرْصُه أظهرَ من

(١) أرغى وأزبد : ضج غضباً ، وتهدد وتوعد .

أن ينخدع بهما من له حظٌّ من أناة وتفكير .

وكان من أشدِّ النّاس مَقْتاً للشيخ وسخطاً عليه أُمُّ الصبي . كانت تكرَه زيارته ، وتستثقل ظِلّه ، وتُؤَدِّى ما تُؤَدِّى وتُعِدُّ ما تُعِدّ وهى كارهة ساخطة ، لا تكاد تُمْسِك لسانَها إلا فى مَشَقَّةٍ وعناء . ذلك لأنَّ زيارة الشيخ كانت ثقيلةً على هذه الأسرة التى كانت تعيش من سَعة ، ولكنّها كانت فقيرة على كل حال .

كانت زيارة الشيخ تستهلك كثيراً من القمح والسمن والعسل وما إلى ذلك ، وكانت تُكلِّف صاحبَ البيت الاقتراضَ لشراء ما لا بُدَّ منه من الضأن والمَعَز . وكان الشيخ لا يُلِمُّ بهذه الأسرة إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه : يأخذ فى هذه المرّة بساطًا ، وفى هذه شالاً من الكشمير ، وعلى هذا النحو .

كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغَب فيه الأُسرة رغبةً شديدة لأنه يمكِّنها من الفخر ورفع الرأس ومناوأة الأشباه والنظائر ، وتكرَهه كرهاً شديداً لأنَّه يُكلِّفها ما يكلِّفها من المال والمشقة . كانت شرًّا لا بُدَّ منه ، جرتْ به العادة

وصادف هوًى فى الناس . وكان اتّصال الأُسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قويًّا متيناً ، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص ، وأحاديث الكرامات والمعجزات . وكانت أمُّ الصبى وأبوه يجِدان لذّةً فى أن يتحدَّثا إلى أبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث . ولم تكن أُمّ الصبيِّ تَدَعُ فرصةً إلّا قصَّتْ فيها هذه القِصَّة : « حج أَبى ومعه جَدَّتى مع الشيخ خالدٍ مرَّة ، وكان الشيخ قد حجّ ثلاث مرَّات تبعه فيها أبى ، واستصحب أُمَّه فى هذه المرَّة . فلما فرغوا من الحج وانصرفوا إلى المدينة ، وقعت الشيخة فى بعض الطريق من الرَّحْل[1] فانحطم ظهرها انحطاماً ، وعَجَزَتْ عن المشى والحركة ، وأخذ ابنها يحملها ويَنْقُلُها من مكان إلى مكان ، ويجد فى ذلك من المَشَقّة والعناء ما شكاه إلى الشيخ ذاتَ يوم ، فقال له الشيخ : أَلستَ تزعُم أَنها شريفةٌ من نَسْل الحسن بن علىّ ؟ قال بلى . قال : فهى ذاهبة إلى جَدِّها ، فإذا انتهيتَ بها إلى المسجد النبوىِّ فَضَعْها فى ناحيةٍ منه ، وخَلِّ بينها وبين جَدّها يصنَع بها ما يشاء .

---

(١) الرحل للبعير كالسرج للفرس ..

وكذلك فعل الرجلُ : وضَع أُمَّهُ فى ناحيةٍ من نواحى المسجد وقال لها فى لغة الفلاح الجافية يملؤها مع جَفْوتها الحبّ والإشفاق : أنتِ وَجَدُّكِ ، فليس لى بكما شأن . ثم تركها وتَبِع شيخه يُريد أن يطوف بقبر النبيِّ . قال الرجل: فوالله ماخطوتُ خُطُواتٍ حتى سمعتُ أُمِّى تناديني،فالتفتُّ فإذا هى قائمة تَسعى، وأبيْتُ أن أعود إليها ، فإذا هى تعدو من ورائى عَدْواً ، وإذا هى تَسْبِقنى إلى الشيخ وتطوف مع الطائفين » .

وكان أبو الصبيِّ لاَ يَدَعُ فرصةً إلاّ ذكر فيها عن الشيخ هذه القصة : ذكر أمامه أن الغزالى قال فى بعض كُتبه: إن النبى لا يمكن أن يُرَى فيما يرى النائم فغَضِب الشيخ وقال : والله ما هكذا كان الأَمَلُ فيك يا غزالى ! لقد رأيتُه بعينَىْ رأسى هذا راكباً بغلته . وذكر له ذلك مرّةً أُخرى فقال : والله ما هكذا كان الأملُ فيك يا غزالى ! لقد رأيته بعينى رأسى هذا راكباً ناقته. وكان أبوا الصبيِّ يستنبط من ذلك أنّ الغزالى قد أخطأ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يَرَوا النبى فيما يرى النائم ، وأنّ الأولياء والصالحين يستطيعون أن يَرَوْه وهم أيقاظ . وكان

أبو الصبيّ يُثْبِتُ هذا بحديث يرويه كلما ذكر هذه القصة ، وهو : « مَنْ رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثّل بي » .

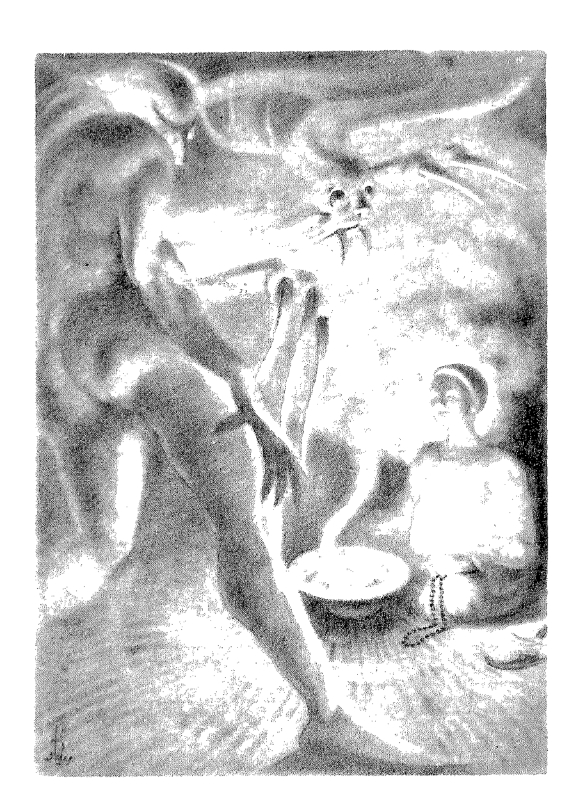
وعلى هذا النحو حفظ الصبيُّ ألواناً من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفيَّة . وكان إذا أراد أن يتحدث بشيء من ذلك إلى أترابه ورفاقه في الكُتَّاب قَصُّوا عليه أمثاله ، يُضِيفونه إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيماناً شديداً .

كانت لأهل الريف شُيوخِهم وشُبَّانهمْ وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصّةٌ فيها سذاجةٌ وتَصَوُّف وغَفْلَةٌ ، وكان أكبرُ الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق .

على أنّ صبيّنا لم يَلبَثْ أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم لوناً آخر جديداً ، وهو علم السِّحْر والطلاسم ؛ فقد كان باعة الكتب يتنقلون فى القرى والمدن بخليطٍ من الأسفار ، لعله أصدقُ مثل لعقيدة الريف فى ذلك العهد . كانوا يحملون فى حَقائبهم مناقبَ الصالحين ، وأخبارَ الفتوح والغزوات ، وقصة القِطّ والفار ، وحِوار السِّلك والوابور ، وشمس المعارف الكبرى فى السحر . وكتاباً آخر لستُ أدرى كيف كان يُسَمَّى ، ولكنه كان يُعْرَف بكتاب « الدِّيَرْبى » ، ثم أوراداً مختلفة ، ثم قصصَ المولد النبوىّ ، ثم مجموعاتٍ من الشعر الصوفى ، ثم كتباً فى الوعظ والإرشاد ، وأخرى فى المحاضرات وعجائب الأخبار ، ثم قصصَ الأبطال من الهلاليين والزناتيين ، وعنترة ، والظاهر بيبرس ، وسَيْف بن ذى يَزَن ، ثم القرآن الكريم مع هذا كلِّه . وكان الناس يشترون هذه الكتب

كلَّها ويلتهمون ما فيها التهاماً ، وكانت عقليتهم تتكوَّن من خُلاصته كما تتكوَّن أجسامهم من خُلاصة ما كانوا يأكلون ويشربون .

وقد قُرِئَ لصاحبنا من هذا كلِّه ، فحفِظَ منه الشيء الكثير . ولكنه عُنِي بشيئين عنايةً خاصَّة : عُنِي بالسحر ، وعُنِي بالتصوُّف . ولم يكن في الجمع بين هذين اللونين من العلم شيء من الغرابة ولا من العُسْر ؛ فإن التناقض الذي يظهر بينهما ليس إلاَّ صوريًّا في حقيقة الأمر . أليس الصُّوفِيُّ يزعُم لنفسه وللناس أنه يخترق حُجُبَ الغيب ، ويُنْبِئُ بما كان وما سيكون ، كما أنه يتعدَّى حدود القوانين الطبيعية ويأتي بضروب الخوارق والكرامات ؟ والساحر ماذا يصنَع ؟ أليس يزعُم لنفسه القدرةَ على الإخبار بالغيب ، وتجاوُز حدودِ القوانين الطبيعية أيضاً ، والاتِّصَال بعالم الأرواح ؟ . . . بلى ! كل ما يوجد من الفرق بين الساحر والصوفيِّ هو أن هذا يَتّصِل بالملائكة ، وذلك يتّصل بالشياطين . ولكن يجب أن تقرأ ابن خلدون وأمثاله لِنَصِلَ إلى تحقيق مثل هذا



الفرق ، ونُرَتِّب عليه نتائجَه الطبيعية من تحريم السحر والترغيب عنه ، وتحبيب التصوُّف والترغيب فيه .

وما كان أبعدَ صبيَّنا وأترابَه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون ! إنما كانت تقع فى أيديهم كتبُ السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، فيقرءون ويتأثَّرُون . ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة . وإذاهم يسلُكون مَناهِج الصوفيَّة ، ويأتون ما يأتيه السَّحَرةُ من ضروب الفنّ . وكثيراً ما يختلط فى عقولهم السحر والتصوُّف ، فيُصبح كلاهما شيئاً واحداً ، غايته تيسيرُ الحياة والتقرب إلى الله .

وكذلك كان الأمر فى نفس صاحبنا ؛ فقد كان يتصوَّف ويتكلَّف السحر ، وهو واثقٌ بأنه سيُرْضِي الله ، ويَظفَرُ من الحياة بأحبِّ لذَّاتها إليه .

وكان من القصص التى تَكْثُر فى أيدى الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب ، قصةٌ اقتُطِعتْ من « ألف ليلة وليلة » وتُعْرَف بقصة « حسن البَصْرىّ » . فى هذه القصة أخبارُ

ذلك المجوسيّ الذى كان يحوّل النحاس ذهباً . وأخبارُ ذلك القصر الذى كان يقوم من وراء الجبل على عُمُدٍ شاهقة فى الهواء ، وتُقيمُ فيه بناتٌ سَبْعٌ من بنات الجن . والذى أوى إليه حسن البصرىّ ، ثم أخبارُ حسن هذا وما كان من رحْلته الطويلة الشاقّة إلى دُور الجنّ . وبين هذه الأخبار خبرٌ ملأ الصّبيَّ إعجاباً ، وهو أنّ قضيباً أُهْدى إلى حسن هذا فى بعض رحلته . وكان من خواصّ هذا القضيب أن تُضْرَبَ به الأرضُ فتنشقّ ويخرج منها تسعةُ نفرٍ يأتمرون أمرَ[1] صاحب القضيب ، وهم بالطبع من الجن أقوياءُ خِفافٌ يطيرون ويَعْدُون ، ويحملون الأثقال ، ويقتلعون الجبال ، ويأتون من عجيب الأمر مالا حدَّ له .

فُتِنَ الصبيُّ بهذه العصا ، ورغِب فى أن يظفَر بها رغبةً شديدة قوية أرّقت[2] ليلَه ونغصتْ يومَه ، فأخذ يقرأ كتب

---

(١) أئتمر أمره : امتثله وعمل به .

(٢) الأرق : ذهاب النوم بالليل . والمراد أن هذه الرغبة الشديدة أرقته هو فى ليله ونغصته فى يومه . ولكن الكاتب قد سلك سبيل المجاز فى الإسناد ، فجعل التأريق واقعاً على الليل والتنغيص واقعاً على اليوم ، ليدل على أن التأريق استغرق ليله كله وأن التنغيص استغرق يومه كله .

السحر والتصوُّف ، يلتمس عند السَّحَرة والمتصوِّفين وسيلةً تمكِّنه من هذه العصا .

وكان له قريبٌ صبيٌّ مثلُه يُرافقه إلى الكتّاب، فكان أشدّ منه كلفاً بهذه العصا . وما هي إلا أن جدّ الصَّبيّانِ في البحث حتى انتهيا إلى وسيلة يسيرة تُمكِّنهما مما يريدان . وجداها في كتاب الدَّيْرَبِي ، وهي أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تطهَّر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطِّيب ، ثم يأخذ في ترديد هذا الِاسم من أسماء الله « يا لطيف يا لطيف » ملقياً في النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين ، فيمضي في ترديد هذه الكلمة وتحريق هذا الطِّيب ، حتى تدور به الأرض ، وينشقَّ أمامه الحائط ، ويَمْثُلَ أمامه خادمٌ من الجن مُوَكَّلٌ بهذا الاسم من أسماء الله ، فيطلب إليه ما يريده ، والحاجةُ مقضيَّة من غير شك .

ظفِر الصبيَّان بهذه الوسيلة، فاعتزما أن يستخدماها . وما هي إلا أنِ اشتريا ضروباً من الطيب ، وخلا صبيّنا إلى نفسه في المَنظرة ، أَغلق بابها من دونه ، ووضع بين يديه قِطَعاً من

النار وأخذ يُلْقِي فيها الطيب، ويُرَدِّدُ : « ياالطيف! ياالطيف! ».

وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشقّ له الحائط ويمثُل الخادم بين يديه ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن . وهنا تحوّل صبيُّنا الساحرُ المتصوّفُ إلى نصّاب .

خرج من المنظرة مضطرباً يُمسكُ رأسه بيديه ولا يكاد لسانه ينطلق بحرف واحد . فتلقّاه صاحبه الصبيّ يسأله : هل لَقِيَ الخادم ؟ وهل طلب إليه العصا ؟ وصاحبُنا لا يُجيب إلا مضطرباً مرتجفاً ، تصطك أسنانه اصطكاكاً ، حتى رَوّع رفيقه الصبيّ . وبعد لأْيٍ[1] أخذ صاحبنا يهدأ ويجيب في ألفاظ متقطِّعة وبصوت متهدِّج : « لقد دارت بي الأرض حتى كدتُ أسقط، وانشقّ الحائط وسمعتُ صوتاً ملأ الحجرة من جميع نواحيها ، ثم أُغْمِيَ عليّ ، ثم أفقتُ فخرجت مسرعاً » !

سمع الصبيّ هذا ، فامتلأ فرحاً وإعجاباً بصاحبه ، وقال له : هَوِّنْ عليك؛ فقد أصابك الرُّعْبُ وملك الخوف عليك أمرك ؛ فلنبحثنّ في الكتاب عن شيء يُؤَمِّنك ويُشَجِّعك على أن

(١) بعد لأى : بعد بطء واحتباس أو بعد جهد .

تثبُتَ للخادم وتطلب منه ما تشاء . واستأنفا البحث فى الكتاب . وانتهى بهما البحث إلى أنّ صاحب الخَلْوة يجب أن يصلِّى ركعتين قبل أن يجلس إلى النار ويأخذَ فى ترديد هذا الاسم . وكذلك فعل الصبىّ من غده ، وأخذ يُلقى الطيبَ فى النار ويردِّد دعاء « اللطيف » ينتظر أن تدور به الأرض . وينشقّ له الحائط ، ويَمثُلَ الخادم بين يديه ، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يكن . وخرج الصبى إلى صاحبه هادئًا مطمئنًّا ، فأخبره أنْ قد دارت الأرض وانشقّ الحائط ومثَل الخادم بين يديه وسمع منه حاجته ، ولكنه لم يشأ أن يجيبه إليها حتى يَمْرُنَ على هذه الخَلْوة ، ويُكثِرَ من الصلاة وإطلاق البَخُور وذكر الله ، وضرب له موعداً لقضاء هذه الحاجة شهراً كاملًا يأتى فيه هذا الأمرَ فى نظام؛ فإن فَسَد هذا النظامُ فلا بُدَّ من استئناف الأمر شهراً كاملًا آخر . وصدَّق الصبىُّ صاحبه ، وأخذ يُلحّ عليه فى كلِّ يوم أن يخلو إلى النار ويُرَدِّد الدعاء . وأخذ الصبىُّ يستغلُّ من صاحبه هذا الضعفَ ، ويكلِّفه ما شاء من مشقة وعَناء . فإن أبى أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبه أنه لن

يخلوَ إلى النار ، ولن يدعوَ « اللطيف » ، ولن يلتمس العصا : فيُذعنُ إذعاناً سريعاً .

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحدَه إلى السحر والتصوف ، وإنما كان يُدْفعُ إلى ذلك دفعاً ، يدفعه إليه أبوه . ذلك أنّ الشيخ كان كثير الحاجات عند الله : كان له أبناء كثيرون ، وكان يحرِص على تعليمهم وتهذيبهم . وكان فقيراً لا يستطيع أن يُؤَدِّى نفقاتِ ذلك التعليم . وكان يستدين من حين إلى حين ويَثْقُلُ عليه أداء الدين . وكان يطمَع فى أن يزاد راتبه من حين إلى حين ، وكان يطمع فى أن يتقدَّم درجةً وينتقل من عمل إلى عمل . وكان يلتمس هذا كلَّه عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة . وكان أحبُّ وسائل الالتماس إليه «عِدِّيّة يَسٓ» . وكان يطلب « عِدِّية يَسٓ » هذه إلى ابنه الصبىّ ؛ لأنه صبىٌّ ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين المَزِيتين أثيرٌ[1] عند الله رفيعُ المكانة عنده . وهل يرضى الله أن يَرُدَّ صبياً مكفوفاً حين يطلب إليه أمراً من الأمور مُتَوَسِّلاً بقراءة القرآن !

(١) أثير عند الله : مقرب مكرم .

وكانت « عِدِّية يس » مَرَاتِبَ : أُولاها أن يخلو الإنسان إلى نفسه فيقرأ هذه السورة من سور القرآن أربع مرّات ، ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثانية أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة سبع مرات ، ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثالثة أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة إحدى وأربعين مَرّةً لا يفرُغ من قراءتها مَرّةً حتى يُتْبعها بدعاء يس : «ياعُصبة الخير بخير المِلل » ، فإذا أتمّ القراءة طلب ما شاء وانصرف . والبخور محتوم فى هذه المرتبة الثالثة . وكان الشيخ يكلِّف ابنه العدِّيَّة الصغرى فى صِغار الأمور ، والوُسْطى فى الأمور الهامَّة ، والكبرى فى الأمور التى تمَسُّ حياةَ الأُسرة كلّها . فإذا سعى فى أن يُدْخِلَ أحدَ أبنائه فى المدرسة مجاناً فالعدِّية الصغرى . وإذا التمس إلى الله أداءَ دَيْنٍ ثقيل فالعدِّية الوسطى . وإذا رغِب فى أن ينتقل من عمل إلى عمل وأن يُزاد راتبُه جنيهاً أو بعضَ الجنيه فالعِدِّية الكبرى . وكان لكل عِدِّية أَجْرٌ : فأما العدِّية الصغرى فأجْرُها قطعةٌ من السكَّر أو الحَلْوَى . وأمَّا العِدِّية الوسطى فأجرُها خمسة مِلّيمات . وأمّا

العِدِّية الكبرى فأجرُها عشرةٌ . وكثيراً ما خلا الصبي إلى نفسه وقرأ سورة يس أربعاً أو سبعاً أو إحدى وأربعين ومن عجيب الأمر أنَّ الحاجاتِ كانت تُقْضَى دائماً . وما هى إلا أن تمَّ اقتناع الشيخ بأنّ ابنه مُبارَكٌ ، وبأنه أثير عند الله .

ولم يكن أمر السحر والتصوُّف مقصوراً على قضاء الحاجات والتنبؤ بما سينجلى عنه الغيب ، وإنما كان يتجاوز هذا كلَّه إلى دفع المكروه واتِّقاء النَّكبات . وقد نسى الصبىُّ أشياء كثيرة ، ولكنه لم ينسَ هذا الرُّعْب الذى ملأَ قلوب الناس جميعاً فى المدينـــة وما حولها من القُرى ، حين وصلت إليهم الأخبارُ من القاهرة بأنّ نَجْماً ذا ذَنَبٍ سيظهر فى السماء بعد أيَّام ؛ حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر مَسَّ الأرض بطَرَفٍ من ذَنَبه فإذا هى هشيم[1] تذرُوه الرياح . فأمَّا النساء وعامَّة الناس فلم يحفِلوا بهذا أو لم يكادوا يحفِلون به ، وإنما كانوا يشعرون بشىء من الرُّعْب كلَّما تحدَّثوا بهذه النازلة أو سمِعوا الحديث عنها ، ثم لا يلبثون أن

(١) الهشيم : اليابس المتكسر من النبات والشجر .

ينصرفوا إلى ما هم فيه من حياة عملية . وأمّا المتفقهون فى الدِّين وحَمَلة القرآن وأصحابُ الطرُق وتلاميذهم فكانوا هَلِعين[١] مُرَوَّعين حقًّا ، لا تكاد تستقرُّ قلوبهم بين جُنوبهم ، وكانوا يتحاورون[٢] فى ذلك تحاوُرًا مُتَّصِلاً ؛ فمنهم مَنْ يزعم أنّ هذه الكارثةَ لن تقع ؛ لأنها مخالفة لِما عُرِف من أشْراطِ[٣] الساعة ، وما كان للأرض أن تفنَى قبل أن تظهر الدَّابَّة والنارُ والدَّجَّال ، وقبل أن يَهْبِطَ المسيحُ إلى الأرض فيملأها عَدْلاً بعد أن مُلِئتْ جَوْراً . ومنهم مَنْ كان يظنُّ أنّ الكارثة من أشراط الساعة . ومنهم مَنْ كان يتحدَّث بأنّ هذه الكارثة قد تقع فتُصيب الأرض بشىء من التدمير دون أن تأتى عليها جميعاً . كانوا يتحاورون طولَ النهار ، حتى إذا أقبل الليلُ وصُلِّيتِ المغربُ اجتمعوا حِلَقاً فى المسجد وأمام الدُّور ، وأخذوا يُرَدِّدون هذه الكلمة : « أَزِفَتِ الآزفة ليس لها من دونِ الله كاشفَةٌ » حتى تصلى العِشاء . وانقضت الأيام ،

(١) هلعين : جزعين أشد الجزع . والجزع : ضد الصبر . ومروعين : مفزعين خائفين .

(٢) يتحاورون : يراجعون الكلام بينهم .

(٣) أشراط الساعة : علامات قيامها .

وجاءت الساعةُ المحتومة، ولم يظهر فى السماء نجمٌ ذو ذَنَبٍ ، ولم يُصِبِ الأرضَ دمارٌ قليل ولا كثير . فانقسم المتفقِّهون فى الدِّين وَحَمَلَةُ القرآن وأصحابُ الطُّرُق : فأمّا أهلُ العلم الذين يستمدُّون علمهم من الكتب وينتمُون[1] إلى الأزهر فانتصروا ، وقالوا : « ألم نَقلْ لكم : إنَّ هذه الكارثةَ لا يمكن أن تقع قبل أن تظهرَ أشراطُ الساعة ؟ ألم نَدْعُكم إلى تكذيب الْمُنجِّمين ؟ » وأمَّا حَمَلَةُ القرآن فقالوا : « كلاَّ ! لقد كادتْ تقع الكارثة لولا أن لَطفَ الله بالرُّضع والحوامل والبهائم ، وسمِع لدعاء الداعين ، وتَضرُّعِ المتضرِّعين » . وأمَّا أهلُ التصوُّف والعلم اللدُنِّى فقالوا : « كلاَّ ! لقد كادت تقع الكارثة لولا أن توسَّط القُطبُ الْمُتَوَلِى بين الناس والله ، فصرَفَ عن الناس هذا البلاء ، وَاحتمل عنهم أوزارَهم[2] » .

وأنت تستطيع أن تقول : إن هذا الدافعَ الذى كان يدفع الناسَ إلى التحصُّن من « الخماسين » كان سحْراً أو تَصَوُّفاً . أمَّا أنا فلا أستطيع إلّا أن أُحَدِّثك بما يذكُر الصبىُّ من أنَّ الأيَّام التى كانت تسبق أيامَ شَمِّ النَّسيم كانت أياماً غريبة ،

---

(١) ينتمون : ينتسبون .

(٢) الأوزار : الآثام والذنوب ، الواحد وزر (بكسر فسكون) .

يخالط فيها قلوبَ النساء والصِّبيان وحَملة القرآن شيءٌ من الفرَح والخوف . كانوا إذا أظلَّهم يومُ الجمعة أسرفوا فى الأكل وفى ألوان خاصة من الطعام ، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا فى أكل البيض المُلَوَّن . وكان الفقهاء قد استعدُّوا لهذا اليوم استعداداً خاصًّا ، فاشْتَرَوْا وَرقًا أبيضَ صقيلاً ، وقطَّعوه قطعاً صغاراً دِقاقًا ، وكتبوا على كلِّ قِطْعةٍ « ا ل م ص » ثم يَطوُون هذه القطع ويملئون بها جُيوبهم . حتى إذا كان يومُ السبت أَلمُّوا[١] بالدُّور التى كانوا يتَّصلون بها ، ففرَّقوا هذه القِطَع من الورق على أهلها ، وطلبوا إلى كلِّ واحدٍ أن يبتلع منها أربعاً قبل أن يُلِمَّ[٢] بطعام أو شراب. وكانوا يزعُمون للناس أنّ ابتلاع هذه القطع من الورق يَصرِفُ عنهم ما تأتى به « الخماسين » من المكروه ، ويصرف عنهم الرَّمَدَ بنوع خاصّ . وكان الناس يُصَدِّقونهم ويبتلعون هذا الورق ويؤدُّون إلى الفقهاء ثمنه بَيْضًا أحمرَ وأصفرَ . وليس يدرى الصبىُّ ماذا كان يصنع سيِّدنا بما كان يجتمع له من البيض فى يوم سبت النُّور ؛ فقد كان كثيراً يتجاوز المئات ، على أنّ استعداد الفقهاء لهذا اليوم

---

(١) ألموا بالدور هنا : زاروها .   (٢) أى قبل أن يصيب منه .

لم يكن يقفُ عند إعداد هذه القِطَع من الورق ، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى شيء آخرَ : كانوا يشترون الورق الأبيضَ الصَّقيل ، ويقطعونه قطعاً طويلة عريضة بعضَ العِرَضِ ، ويكتُبون عليها مُخلَّفات النبي :

مُخَلَّفُطه سُبْحَتانِ ومُصحَفٌ ومُكْحلَةٌ سَجَّادتانِ رَحًى عَصاَ

حتى إذا فرغوا من هذه المخلَّفات أَضافوا إليها دعاءً آخر يبتدئ بهذه الكلمات التي كان الفقهاء يقولون إنها سُرْيانية :

« دبى دبندى ، كرى كرندى ، سرى سرندى ، سبر سبر بتونا ، واحبسوا البعيدَ عنا لا يأتينا ، والقريبَ منا لا يؤذينا . . الخ »

ثم يطوون هذه الأوراق على أنها حُجُبٌ وتمائم ، يُفرِّقونها في البيوت على النساء والصِّبيان ، ويتقاضَوْن أثمانَها دراهم وخبزاً وفطيراً وضروباً من الحَلْوَى ، ويزعُمون للناس أنّ اتّخاذ هذه التمائم والحُجُب يَدفَعُ عنهم أذى هذه الشياطين التى تحمِلها رياح الخماسين . وكان النساء يَتَلَقَّيْنَ هذه الحُجُبَ مطمئنَّات إليهـا ، ولكنَّ ذلك لم يكن يَمنعهُن من اتقاء العفاريت يوم شَمِّ النسيم بشَقِّ البصل وتعليقه على أبواب الدُّور ، وأكلِ الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام في هذا اليوم .

١٧

وأراد الله أن يَشقى « سيِّدنا » بتلميذه شقاءً غيرَ قليل ؛ فلم تَكْفِه تلك الحوادثُ التي كانت تحدُث من حين إلى حين عند ما كان الشيخُ يمتحن الصبيَّ ، ولم تَكْفِه هذه النَّكباتُ المتَّصلة التي نشأت عن عناية الصبيِّ بحِفْظِ الألْفِيَّة وغيرها من المتون ، وجعلتِ الصبيَّ ثقيلًا سَمِجًا يتعالَى على أترابه وعلى سيِّده ، ويرى لنفسه مكانةَ العلماء ، ويَعْصى أوامرَ العريف — لم يَكْفِه هذا كلُّه ، بل كانت نكبةٌ أُخرى لم يَكُنِ الرجلُ ينتظرها حقًّا ، وكانت أشدَّ عليه من كلِّ النكباتِ الأُخرى ، لأنَّها مَسَّته في صِناعته . ذلك أنَّ رجلًا من أهل القاهرة هَبَط المدينةَ في يومٍ من الأيام على أنه مُفَتِّشٌ للطريق الزراعيَّة . وكان هذا الرجل في متوسِّط عمره ، وكان « مطربشاً » يتكلم الفِرنْسِيَّة ، وكان يقول : إنه تخَرَّج في مدرسة الفنون والصنائع ، وكان خفيفَ الظِّلِّ جَذّابًا . فما لَبِث

أن أحبَّه الناس ودَعَوْه إلى دُورهم ومَجالسهم . وما لبث أن اتّصلت الْمَوَدَّةُ بينه وبين أبى الصبىّ . وكان قد رَتَّب « سيِّدَنا » فى بيته يقرأ له سورةً من القرآن فى كلّ يوم ، وجعل له عشرةَ قروش فى كل شهر ، وهو الأجْرُ المرتفع الذى كان يدفعه وجوهُ الناس . فكان سيِّدنا مُحِباً لهذا الرجل مُثْنِياً عليه . ولكنَّ رَمضانَ أقبل ، وكان الناس يجتمعون فى ليالى رَمضان عند رجلٍ من أهل المدينة وجيهٍ يعمَل فى التِّجارة . وكان سيِّدنا يقرأ القرآن عند هذا الرجل طَوَالَ الشهر . وكان الصبىّ يُرافق سيِّدَنا ويُريحه من حينٍ إلى حين بقراءة سُورة أو جزءٍ مكانَه . فقرأ ذاتَ ليلةٍ وسمِعه هذا المُفتِّش ، فقال لأبيه : إنَّ ابنك لشديدُ الحاجة إلى تجويدِ القرآن . قال الشيخ سَيُجَوِّدُه متى ذهب إلى القاهرة على شيخٍ من شيوخ الأزهر . قال المفتِّش : فأنا أَستطيع أَن أُجَوِّد له القرآن على قراءة حفْصٍ ، حتى إذا ذهب إلى الأزهر كان قد أَلَمَّ بأصول التجويد[1] وسَهُل عليه أن يفرغ للقراءات السَّبْع أو العَشْر أو الأربَع عَشْرَة . قال الشيخ : وهل أنت

---

(١) ألم بأصول التجويد : عرفها .

من حملة القرآن ؟ قال المفتِّش : ومِنَ المُجَوِّدين . ولولا أنِّى مشغولٌ لاستطعتُ أن أُقرئَ ابنَك القرآن على الروايات جميعاً ، ولكنِّى أُحِبُّ أَن أُخَصِّصَ له ساعةً فى كلِّ يومٍ فأُقرِئه رواية حفص ، وأُدْرُسَ له أصولَ الفنّ ، وأُعِدَّه بذلك للأزهر إعداداً صحيحاً . قال القوم : وكيف لمطربش يتكلم الفرنسيَّة بحِفْظِ القرآن ورواية القراءات ؟ قال المفتِّش : أنا أزهرىٌّ تَقَدَّمْتُ فى دراسة العلوم الدينية إلى مدًى بعيدٍ ، ثم انصرفتُ عنها إلى المدارس ، فتخرَّجتُ فى مدرسة الفنون والصنائع . قالوا : فاَقْرأْ لنا شيئاً . فنَزَع الرجلُ نَعْلَيْه وتربَّع ورَتَّل لهم سورةَ هُودٍ ترتيلاً ما سِمعوا مثله . فلا تَسَلْ عن إعجابهم به وإكبارهم إيَّاه ، ولاتَسَلْ عَمَّا أصاب سيِّدنا من الحزن والغيظ ؛ فقد قضى الرجلُ ليلتَه كأنَّه مصعوق[1].

وأصبح الشيخ فأمر ابنَه بأَن يَخْتَلِفَ[2] إلى بيت المفتِّش فى كلِّ يوم . وفَرِحَ الصبىُّ بهذا فَرَحًا شديدًا ، فأعاده على أترابه فى الكُتَّاب وتحدَّث به الصِّبْيان . ولا تَسَلْ عن مِقدار

(١) مصعوق : أصابته صاعقة . (٢) يختلف هنا : يتردد .

ما كان يترك هذا الحديث فى نفس سيِّدنا من الحزن ؛ فقد نَهَرَ[1] الصبيَّ وأمره ألا يذكر اسمَ المفتِّش مرّة فى الكُتَّاب.

وذهب الصبيُّ إلى بيت المفتِّش ، واتَّصل ذهابُه إلى هذا البيت ، وأَقرأه المفتِّش « تُحْفةَ الأطفال » وشَرَحَ له أُصول التجويد : علَّمه المدَّ والغنّ والإخفاء والإدغام ، وما يتصل بهذا كله . وكان الصبي مُعْجَباً بهذا العلم ، وكان يتحدَّث به إلى أترابه فى الكتَّاب ، وكان يُبيِّن لهم أن سيِّدنا لا يُحْسِن المدّ ولا يُتقِنُ الغنّ ، ولا يعرف الفرقَ بين المدّ الكلِمِيِّ والحَرْفِيّ ، ولا بين المدِّ المُثقَّل والمُخَفَّف . وكانت أصداء هذا كلِّه تصل إلى سيِّدنا فتغُمُّه وتُحْزِنه وتُخْرِجه أحياناً عن طَوْره .

وأخذ الصبيُّ يقرأ القرآن على المفتِّش من أوَّله ، وأَخذ المفتش يُعلِّمه مواضع الوقف والوصل . وأخذ الصبي يُقلِّد المفتِّش فى ترتيله ويحاكي نَغَمه ، وأخذ يقرأ القرآن على هـذا النحو فى الكتَّاب . وجعل أبوه يمتحنه ، فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أُعْجِب وطرِب وأَثنى على المفتِّش . وما كان

(١) نهره : زجره .

شيء يَغيظ سيِّدنا مثل ما كان يغيظه هذا الثناء .

وقضى الصبيُّ سنةً كاملة يتردَّد على هذا البيت ويقرأ القرآن على المفتِّش ، حتى أتقن التجويدَ برواية حَفْص ، وكاد يبدأ فى رواية وَرْش لولا أن حدثت حوادثُ وسافر الصبيُّ إلى القاهرة.

أكان الصبيُّ يحبُّ الاختلافَ إلى هذا البيت لأنَّه كان يُعْجَبُ بالمفتش، ولأنَّه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده ، وعلى أن يَغيظَ سَيِّدَنا ويُظهِر التفوُّق على أترابه ؟ نعم ! فى الشهرين الأوَّلين من هذه السنة ، فأما بعد هذين الشهرين فقد كان يَجْذِبُه إلى بيت المفتش ويُحبِّبه فيه شيء آخر . . .

كان المفتِّش مُتَوَسِّطَ العُمْر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها . وكان قد تزوَّج من فتاةٍ لم تَبْلُغ السادسةَ عَشْرَةَ . ولم يكن له ولدٌ ، ولم يكن يَعْمُرُ بيتَه الكبيرَ إلا هذه الفتاةُ وجَدَّةٌ لها قد جاوزت الخمسين . فأمَّا حين بدأ الصبيُّ يختلف إلى هذه الدار ، فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتفت إليه أحد غيرُ المفتِّش . وما هى إلا أن كَثُرَ تردُّد الصبي حتى أخذتِ الفتاةُ تتحدَّث إليه وتسألُه عن نفسِه وعن أُمِّه وعن إخوته

وعن داره ، وأخذ الصبيُّ يُحِبها مُستَحْيِياً ، ثُمَّ مُتَبَسِّطاً ، ثم مطمئنًّا . واتّصلتْ بين هذه الفتاة وهذا الصبيِّ مَوَدَّةٌ ساذجة كانت حُلْوَةً فى نفس الصبيِّ لذيذةَ الموقع فى قلبه ، وكانت ثقيلةً على نفس هذه الشيخة ، وكان المفتِّش يجهلها جهلًا تامًّا .

وأخذ الصبيُّ يذهب إلى دار المفتِّش قبل الميعاد ليظفرَ بساعةٍ أو بعضِ ساعةٍ يتحدَّثُ فيها إلى هذه الفتاة ، وأخذتِ الفتاة تنتظره ، حتى إذا أقبل أَخذتْه إلى غُرفتها ، فجلستْ وأَجلسته وتحدَّثا . وما هى إلَّا أَنِ استحال الحديثُ إلى لَعِب ، إلَى لَعب كلعب الصِّبْيان لا أكثرَ ولا أقلَّ ، ولكنه كان لعباً لذيذاً . وقصَّ الصبيُّ هذا كلَّه على أُمِّه، فَضَحِكتْ ورَثَتْ[1] للفتاة قائلةً لأُخت الصبيِّ : طِفلةٌ زُوِّجتْ من هـذا الشيخ لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحدٌ ، فهى ضيِّقة الصَّدْر فى حاجةٍ إلى اللهو والعَبَث .

ومن ذلك اليوم سعتْ أُمُّ الصبيِّ فى التعرُّف إلى هـذه الفتاة ، ودعتها إلى البيت وإلى أن تُكْثِرَ التَّرَدُّد عليها .

---

(١) رثت للفتاة : رحمتها ورقت لها .

وكذلك اتّصلت أيّامُ الصبيّ بين البيت والكُتّاب والمحكمة والمسجد وبيت المُفتّش ومجالس العلماء وحَلَقات الذِّكْر، لا هي بالحُلْوة ولا هي بالمُرَّة ، ولكنها تحلو حيناً وتَمُرُّ حيناً آخر ، وتمضي فيما بين ذلك فاترةً سخيفةً . حتى كان يومٌ من الأيّام ذاقَ الصبيُّ فيه الألَمَ حقًّا ، وعَرَف منذ ذلك أنَّ تلك الآلام التي كان يشقى بها ويَكْرَهُ من أجلها الحياةَ لم تكن شيئاً . وأنَّ الدهرَ قادرٌ على أنْ يؤلِمَ الناسَ ويُؤْذِيهم ، ويُحَبِّبَ إليهم الحياةَ ويُهَوِّنَ من أمرها على نفوسهم في وقت واحد . كانت للصبيّ أُخْتٌ هي صُغْرَى أبناء الأُسرة ، كانت في الرابعة من عمرها . كانت خفيفة الرُّوح طلْقَةَ الوَجْه فصيحةَ اللِّسان عَذْبَةَ الحديثِ قَوِيَّةَ الخيال ، كانت لَهْوَ الأُسرة كلِّها ، كانت تخلو إلى نفسها ساعاتٍ طِوالاً في لهوٍ وعَبَثٍ ، تجلس إلى الحائط فتتحدَّث إليه كما تتحدَّث أُمُّها إلى زائراتها ، وتبعَث في كلِّ اللُّعَب التي

كانت بين يديها رُوحًا قويًّا وتُسْبِـغ عليها شخصيَّة . فهذه اللعْبة امرأةٌ ، وهذه اللّعْبَةُ رجلٌ ، وهذه اللّعْبةُ فتًى ، وهذه اللّعْبةُ فتاةٌ ، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعاً تذهَب وتجئ ، وتَصِلُ بينها الأحاديثَ مَرَّةً فى لَهْوٍ وَعبَثٍ ، وأُخرى فى غيظٍ وغَضَبٍ ، ومَرَّةً ثالثةً فى هُدوء واطمئنان . وكانتِ الأُسْرَةُ كلُّها تجد لَذَّةً قويّة فى الِاسْتماع إلى هذه الأحاديث والنَّظَرِ إلى هذه الألوان من اللّعَب دون أن ترى الطفلةُ أو تستمعَ أو تُحِسَّ أنَّ أحداً يرْقُبها .

فما هى إلا أنْ أقبلتْ بَوادرُ عيدِ الأضْحَى فى سنةٍ من السنين، وأخذتْ أُمُّ الصبيِّ تستعدُّ لهذا العيد ، تُهَيِّئ له الدارَ وتُعِدُّ له الخبز وألوان الفطير . وأخذ إخوةُ الصبيِّ يستعدّون لهذا العيد ، يختلف كبارهم إلى الخيَّاط حيناً ، وإلى الحْذَّاء حيناً آخر ، ويلهو صغارُهم بهذه الحركة الطارئة على الدار . فينظر صبيّنا إلى أولئك وهؤلاء فى شىء من الفلسفة كان قد تعَوَّده ؛ فلم يكن فى حاجةٍ إلى أن يختلف إلى خيَّاط أو حَذَّاء ، وما كان ميَّالًا إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة ، وإنَّما كان يخلو

إلى نفسه ويعيش فى عالَمٍ من الخيال يستمدُّه من هذه القصص والكُتب المختلفة التى كان يَقْرَؤها فيُسْرِفُ فى قراءتها .

أقبلتْ بَوادِرُ هـذا العيدِ وأصبحتِ الطفلةُ ذاتَ يومٍ فى شىءٍ من الفُتور والهُمود لم يكد يلتفت إليه أحدٌ . والأطفال فى القُرى ومُدُنِ الأقاليم مُعَرَّضون لهذا النوعِ من الإهمال ، ولا سِيَّما إذا كانتِ الأُسرةُ كثيرةَ العَدَدِ وربَّةُ البيتِ كثيرةَ العمل . ولنساء القرى ومُدن الأقاليم فلسفةٌ آثمةٌ وعلمٌ ليس أقلَّ منها إثماً . يشكو الطفل ، وقلَّما تُعْنَى به أُمُّه . . . وأىُّ طفل لا يشكو ! إنما هو يومٌ وليلةٌ ثم يُفيق ويُبِلُّ[1] فإن عُنِيتْ به أُمُّه فهى تزدرى الطبيبَ أو تجهله ، وهى تعتمِد على هذا العلم الآثم ، عِلْم النساء وأشباه النساء . وعلى هـذا النحو فَقَدَ صبيّنا عينيه ؛ أصابه الرَّمد فأُهمِل أياماً ، ثم دُعى الحلاَّقُ فعالجه عِلاجًا ذهب بعينيه . وعلى هـذا النحو فَقَدَتْ هذه الطفلة الحياة ؛ ظلَّت فاترةً هامدةً محمومةً يومًا ويومًا ويومًا . وهى مُلقاةٌ على فِراشها فى ناحيةٍ من نواحى الدار ، تُعْنى بها أُمُّها

(١) أبل من مرضه : شفى منه .

أو أختها من حين إلى حين ، تدفع إليها شيئاً من الغذاء الله يعلم أكان جَيِّداً أم رديئاً . والحركة متصلةٌ في البيت : يُهَيَّأ الخبز والفطير في ناحية ، وتُنَظَّف المَنْظَرَةُ وحجرة الاستقبال في ناحية أُخرى ، والصِّبيان في لهوهم وعبثهم ، والشبّان في ثيابهم وأحذيتهم ، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخرَ النهار وأوّلَ الليل .

حتى إذا كان عصرُ اليوم الرابع وقف هذا كلّه فجأة . وَقَفَ وعرفتْ أمُّ الصبيِّ أن شَبَحًا مُخيفاً يحلّق على هذه الدار . ولم يكن الموت قد دخل هذه الدارَ من قبلُ ، ولم تكن هذه الأمُّ الحنون قد ذاقتْ لَذْعَ الألم الصحيح . نعم ! كانت في عملها وإذا الطفلةُ تصيحُ صياحًا منكراً ، فتَدَعُ أُمُّها كلَّ شيءٍ وتُسْرع إليها . والصِّياح يتَّصِل ويزداد ، فتَدَعُ أخوات الطفلة كلَّ شيءٍ ويُسرعن إليها . والصياح يتصل ويشتدّ ، والطفلة تتلوّى وتضطرب بين ذراعَى أُمِّها ، فيدعُ الشيخُ أصحابه ويسرع إليها . والصياح يتصل ويشتدّ ، والطفلة ترتعد ارتعاداً منكراً ويتقبّض وجهها ويتصبّب العَرَقُ عليه ،

فينصرف الصِّبيان والشُّبّان عما هم فيه من لهو وحديث ويُسرعون إليها . ولكنّ الصياح لا يزداد إلاّ شدَّةً ، وإذا هذه الأُسرة كلّها واجمةٌ مبهوتة[1] مُحيطةٌ بالطفلة لا تدرى ماذا تصنع ! . . . ويتّصل ذلك ساعةً وساعةً . فأمَّا الشيخ فقد أخذه الضَّعْفُ الذى يأخذ الرجالَ فى مثل هذه الحال فينصرف مُهَمْهِماً[2] بصلوات وآيات من القرآن يتوسَّل بها إلى الله وأمّا الشبَّان والصبيان فيتسلّلون فى شىء من الوُجوم لا يكادون ينسَوْن ما كانوا فيه من لهو وحديث ، ولا يكادون يستأنفونه . هم كذلك حيارَى فى الدار ، وأُمُّهم جالسةٌ واجمةٌ تُحَدِّق إلى ابنتها وتسقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هى ، والصِّياحُ متصلٌ مشتدٌّ ، والاِضطرابُ مستمرٌّ متزايد .

ما كنت أحسَبُ أنّ فى الأطفال ولمّا يتجاوزوا الرابعة قوَّةً تعدِل هذه القوَّة . وتأتى ساعة العَشاء وقد مُدَّتِ المائدة ، مَدَّتها كبرى أَخَوات الصبىّ ، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا إليها . ولكنَّ صياح الطفلة متصلٌ ، فلا تَمُدُّ يدٌ إلى طعام ، وإنما

---

(١) واجمة : عابسة مطرقة لشدة الحزن . ومبهوته : متحيرة .
(٢) المهمهة : الكلام الخفى .

يتفرّقون جميعاً ، وتُرْفَعُ المائدةُ كما مُدَّتْ ، والطفلة تُصيح وتضطرب ، وأمُّها تحدِّق إليها حيناً وتبسُط يدها إلى السماءِ حيناً آخر ، وقد كشفتْ عن رأسها وما كان من عادتها أن تفعل ! ولكنَّ أبواب السماءِ كانت قد أُغلقت فى ذلك اليوم ، فقد سَبَق القضاءِ بما لا بُدَّ منه . فيستطيعُ الشيخ أن يتلو القرآن ، وتستطيع هذه الأُمّ أن تتضرّع . ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاءِ الناس جميعاً لم يفكِّر فى الطبيب . وتقدَّم الليل وأخذ صِياح الفتاة يهدَأ ، وأخذ صوتها يخفُت[1] ، وأخذ اضطرابها يَخِفُّ ، وخُيِّل إلى هذه الأُمِّ التَّعِسة أنْ قد سمع الله لها ولزوجها ، وأنْ قد أخذت الأزمة[2] تنحلّ . وفى الحق أنّ الأزمة كانت قد أخذت تنحلّ ، وأنّ الله كان قد رأف بهذه الطفلة ، وأنَّ خُفوتَ الصوت وهدوءَ هذا الاضطراب كانا آيَتَىْ هذه الرأفة . تَنْظُرُ الأُمُّ إلى ابنتها فيخيَّل إليها أنها ستنام ثم تنظر فإذا هدوءٌ متصل لاصوتَ ولا حركةَ ، وإنما هو نَفَسٌ خفيفٌ شديد الخِفّة يَتَرَدَّد بين شفتين مفتَّحتين قليلا ، ثم

---

(١) يخفت : يضعف ويسكن .   (٢) الأزمة : الشدة .

ينقطع هذا النَّفَسُ وإذا الطفلة قد فارقتِ الحياة .

ماذا كانت علّتُها ؟ كيف ذهبتْ بحياتها هذه العلّة ؟ الله وحده يعلم هذا .

وهنا يرتفع صياحٌ آخرُ ويتصلُ ويشتدُّ . وهنا يظهر اضطرابٌ آخر ويتصل ويشتدّ . ولكنه ليس صياحَ الطفلة ولا اضطرابَها ، وإنما هو صياحُ هذه الأُمّ وقد رأَتِ الموت ، واضطرابُها وقد أحسَّتِ الثُّكْلَ[1] . وإذا الشبَّانُ والصِّبيانُ قد فَزِعوا إلى أُمِّهم وسَبَقهم إليها الشيخ . وإذا هى فى جَزَعٍ وهَلَعٍ ينطِق لسانُها بألْفاظٍ لا صلَةَ بينها ، ويُقَطِّع الدمع صوتَها تقطيعاً ، وإذا هى تلطم خَدَّيْها فى عُنْفٍ متَّصلٍ . وزوجُها مائلٌ أمامها لا ينطِقُ لسانُهُ بحرفٍ ، وإنما تنهمر دموعُه انهماراً .

وإذا الجاراتُ والْجِيران قد سمِعوا هذا الصياحَ فأقبلوا مسرعين . فأمّا الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبّل عزاءهم فى قوّةٍ وجَلَدٍ . وأما الشبَّان والصبيان فيتفرّقون فى الدار ، قد قَسَت قلوب

---

(١) الثكل : الموت والهلاك ، وفقدان الحبيب أو الولد .

بعضهم فنام ، ورقّتْ قلوب بعضهم فسَهِر . وأمَّا الأُمُّ ففيما هي فيه من جَزَعٍ وهَلَعٍ ، أمامَها ابنتها هامدةً جامدةً ، تُوَلْوِلُ[١] وتَخمِشُ وجهها وتَصُكُّ صَدْرَها ، ومن حولها بناتُها وجاراتها يصنعن صنيعَها يُوَلْوِلْنَ ويَخْمِشْنَ الوجوه ويَصْكُكْنَ الصدور حتى ينقضي الليل كلّه .

وما أَشد نُكْرَ هذه الساعةِ التي أقبل فيها بعضُ الناس واحتملوا الطفلة ومَضَوْا بها إلى حيث لاتعود ! كان ذلك اليومُ يومَ الأضحى ، وكانتِ الدار قد هُيِّئتْ للعيد ، وكانتِ الضحايا قد أُعِدَّتْ . فيا لَهُ من يوم ، ويا لها من ضحايا ! ويا نُكْرَها من ساعةٍ حين عادَ الشيخ إلى داره مع الظهر وقد وارَى ابنتَه في التراب ! . . .

منذ ذلك اليوم اتّصلتِ الأواصر[٢] بين الحزن وبين هذه الأُسرة . فما هي إلا أشهرٌ حتى فَقَد الشيخ أَباه الهَرِم . وما

---

(١) الولولة : الإعوال والبكاء . الخمش : اللطم والضرب . والصك هنا : الضرب الشديد . (٢) الأواصر هنا : العلائق والصلات .

هى إلا أشهرٌ أُخرى حتى فَقَدَتْ أمُّ الصبيِّ أمَّها الفانية[١] وإنما هو حِدادٌ[٢] متصلٌ وألَمٌ يقفو[٣] بعضُه بعضاً ، منه اللّاذع ومنه الهادئ . حتى كان هذا اليومُ المُنكَرُ الذى لم تَعْرِف الأُسْرة يوماً مثلَه ، والذى طبع حياتَها بطابَعٍ من الْحُزن لم يُفارقها والذى ابيضَّ له شَعرُ الأبوين جميعاً ، والذى قضى على هذه الأُمِّ أَن تَلبَسَ السَّوادَ إلى آخر أيامها ، وألّا تذوق للفرح طعما ، ولا تضحَكَ إلّا بكتْ إثرَ ضَحِكها ، ولا تنام حتى تُريق بعض الدموع ، ولا تُفيق من نومها حتى تُريق دموعًا[٤] أُخرى ، ولا تَطْعَمَ فاكهة حتى تُطْعِمَ منها الفقراءَ والصبيان ، ولا تبتسم لعيدٍ ولا تستقبل يومَ سرورٍ إلّا وهى كارهة راغمة.

كان هذا اليومُ يومَ ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢ . وكان الصيف منكراً فى هذه السنة . وكان وباء الكوليرا قد هبط مصر ففَتَكَ بأهلها فتكاً ذريعاً[٥] ، ودمّر مدنًا وقُرًى ، ومحا أُسَرًا

---

(١) الفانية : التى بلغت أرذل العمر . (٢) حدت المرأة تحدت المرأة تحد (كضرب ونصر) حدا وحدادا : تركت الزينة لموت زوج أو حبيب . والمراد بالحداد هنا الحزن . (٣) يقفو : يتبع . (٤) الإراقة : الصب . يريد حينا تذرف دموعاً غزيرة . (٥) ذريعاً : سريعاً فاشياً .

كاملة . وكان « سيِّدنا » قد أكثر من الحُجُب وكتابة المخلَّفات ، وكانت المدارسُ والكتاتيب قد أُقفلت ، وكان الأطبّاء ورُسُل مصلحة الصحة قَدِ انبثُّوا[1] فى الأرض ومعهم أدواتهم وخيامهم يَحْجِزُون فيها المرضى ، وكان الهَلَعُ قد ملأ النفوس واستأثر بالقلوب ، وكانت الحياة قد هانت على الناس، وكانت كلُّ أُسرة تتحدَّث عما أصاب الأُسَرَ الأُخرى وتنتظر حظَّها من المصيبة . وكانت أُمُّ الصبى فى هلع مستمرّ ، وكانت تسأل نفسها ألفَ مَرَّةٍ فى كلِّ يومٍ عن تنزل النازلة من أبنائها وبناتها . وكان لها ابنٌ فى الثامنةَ عَشْرَةَ ، جميلُ المَنْظَر رائع الطلعة نجيبٌ ذكىُّ القلب ، وكان أنجبَ الأُسرة وأذكاها وأرقَّها قلباً ، وأصفاها طبعاً ، وأبرَّها بأُمِّه ، وأرأفها بأبيه ، وأرفقها بصغار إخوته وأخواته ، وكان مبتهجاً دائماً ، وكان قد ظفِر بشهادة « البكالوريا » وانتسب إلى مدرسة الطب ، وأخذ ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة . فلمَّا كان هذا الوباء ، اتَّصل بطبيب المدينة وأخذ يُرافقه ويقول : إنه يتمرَّن

---

(١) انبثوا : انتشروا .

على صناعته ، حتى كان يوم ٢١ أغسطس .

أقبل الشابُّ آخر هذا اليوم كعادته باسماً ، فلاطف أمَّه وداعبها وهدّأ من رَوْعها وقال: لم تُصَبِ المدينةُ اليومَ بأَكثر من عشرين إصابةً ، وقد أخذتْ وطأة الوباء تَخِفّ ، ولكنه مع ذلك شكا من بعض الغَثَيان[1] ، وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحدَّثه كعادته ، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب معهم فى كلّ يوم عند شاطئ الإبراهيمية . فلما كان أوَّلُ الليل عاد وقضى ساعةً فى ضحك وعبث مع إخوته . وفى هذه الليلة زعم لأهل البيت جميعاً أنَّ فى أكل الثّوم وقايةً من الكوليرا ، وأكَلَ الثّومَ وأخذ كبارَ إخوته وصغارَهم بالأكل منه ، وحاول أن يُقْنِعَ أبويه بذلك فلم يُوَفَّق .

وكانت الدار هادئةً مُغْرِقة فى النوم كبارُها وصغارُها وحيوانها عندما انتصف الليل . ولكنَّ صيحة غريبة ملأت هذا الجوَّ الهادئ ، فهَبَّ[2] لها القوم جميعاً . فأمَّا الشيخ وزوجته

---

(١) غثت النفس غثيا وغثيانا : خبثت واضطربت حتى تكاد تتقيأ .
(٢) هب القوم : انتبهوا من النوم .

فكانا فى هذا الدّهليز المنبسط الذى تُظِلّه السماء يدعوان ابنهما باسمه . وأمّا الشبّان من أهل الدار فكانوا يَثِبُون من فراشهم مسرعين إلى حيثُ الصوت . وأمَّا الصبيان فكانوا يجلسون يَحُكّون أعينهم بأيديهم يحاولون أن يتبيَّنوا فى شىء من الهلع من أين يأتى الصوتُ وماذا كانتِ الحركة الغريبة !

وكان مصدرُ هذا كله صوتَ هذا الفتى وهو يعالج القىء . وكان الفتى قضى ساعةً أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ويمضى إلى الخلاء ليقىء مجتهدًا ألا يوقظ أحداً . حتى إذا بلغتِ العلَّة منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن يقىء فى لطف ، فسمع أبواه هذه الحَشرجةَ ففزِعا لها وفزع معهما أهلُ الدار جميعاً .

إذن فقد أُصيب الشابُّ ، ووجد الوباء طريقه إلى الدار ، وعرفت أُمُّ الفتى بأىِّ أبنائها تنزل النازلة . لقد كان الشيخ فى تلك الليلة خليقاً بالإعجاب حقًّا . كان هادئاً رزيناً مُرَوِّعاً مع ذلك ، ولكنه يملك نفسه . وكان فى صوته شىء يدل على أنّ قلبه مفطور ، وعلى أنه مع ذلك جَلْدٌ مستعدٌّ لاحتمال النازلة .

آوى ابنَه إلى حُجرته ، وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته ، وخرج مسرعًا فدعا جارين من جيرانه ، وما هى إلّا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب .

وفى أثناء ذلك كانت أُمُّ الفتى مُروّعةً جَلدةً مؤمنةً تُعْنَى بابنها ، حتى إذا أمهله القىء خرجتْ إلى الدِّهليز فرفعت يدها ووجهها إلى السماء وفنيتْ فى الدعاء والصلاة ، حتى تسمع حشرجة القىء فتُسرع إلى ابنها تُسنده إلى صدرها وتأخذ رأسه بين يديها ، ولسانُها مع ذلك لا يَكُفُّ عن الدعاء والاِبتهال .

ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبّان وبين المريض، فملؤا عليه الحجرة وأحاطوا به واجمين ، وهو يُداعب أُمّه كلما أمهله القىء ، ويعبث مع صغار إخوته . حتى إذا جاء الطبيب فوصَف ما وصف وأمر بما أمر وانصرف على أن يعودَ مع الصبح ، لَزِمتْ أُمُّ الفتى حجرة ابنها ، وجلس الشيخ قريبًا من هذه الحجرة واجمًا لا يدعو ولا يصلِّى ولا يُجيب أحداً من الذين كانوا يتحدَّثون إليه .

وأقبل الصبح بعد لأْيٍ، وأخذ الفتى يشكو ألَمًا فى ساقيْه .

وأقبلتْ إليه أخَواته يَدْلُكْنَ له ساقيْه ، وهو يشكو صائحًا مَرَّةً كاتمًا ألَمَه ومَرَّةً أُخرى القَيْء يُجْهِده ويَخْلَع فى الوقت نَفْسه قلبَ أبويه . وقضتِ الأُسرةُ كلّها صَباحًا لم تقض مثلَه قطّ : صَباحًا واجمًا مظلمًا فيه شىء مُفزِع مُرَوِّع . فأمّا خارجُ الدار فكان يزدحم بالناس ، أقبلوا إلى الشيخ يُواسونه . وأمّا داخلُ الدار فكان يزدحم بالنساء أقبلن يُواسين أُمَّ الفتى . وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهؤلاء فى شُغل . وكان الطبيب يَتَرَدد بين ساعةٍ وساعة . وكان الفتى قد طلب أن يُبْرَق إلى أخيه الأزهرىِّ فى القاهرة وإلى عَمِّه فى أعلى الإقليم . وكان يطلُب الساعةَ من حينٍ إلى حين ينظُر فيها كأنَّه يتعجَّل الوقتَ ، وكأنه يُشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشابَّ وعمَّه الشيخ . يا لَها من ساعةٍ منكرةٍ هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢ .

انصرف الطبيب من الُحجْرة يائسًا ، وكأنَّه قد أَسَرَّ إلى رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأنّ الفتى يُحْتَضَر[1] فأقبل

(١) يحتضر : يحضره الموت .

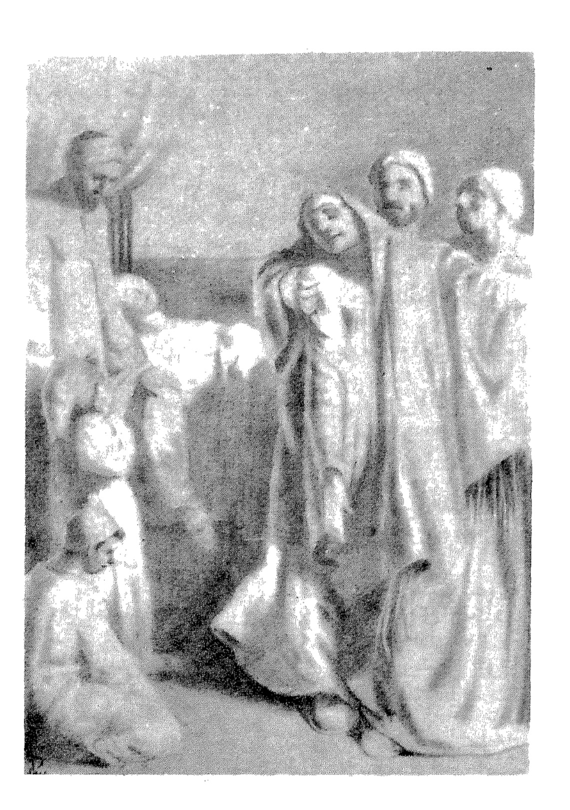
الرجلان حتَّى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أُمُّه . ظهرتْ فى هذا اليوم لأوّل مَرَّةٍ فى حياتها أمامَ الرجال .

والفتى فى سريره يَتَضَوّر[١] ، يقف ثم يُلْقِى بنَفْسِه ، ثم يجلس ثم يطلُب الساعة ، ثم يُعالِج القىء ، وأُمُّه واجمة ، والرجلان يُواسيانه وهو يُجيبهما : لستُ خيراً من النبىِّ . أليس النبىُّ قد مات ! ويدعو أباه يريد أن يُواسيه فلا يُجيبه الشيخ . وهو يقوم ويقعد ويُلْقِى نَفْسَه فى السِّرير مَرّةً ومن دون السرير مَرّةً أُخرى . وصبيّنا منزو فى ناحية من هذه الحجرة ، واجمٌ كئيب دَهِشٌ يُمَزِّق الْحُزْنُ قلبَه تمزيقاً .

ثم ألقى الفتى نَفْسَه على السرير وعَجَز عن الحركة ، وأخذَ يَئِنُّ أنيناً يَخْفُتُ من حين إلى حين . وكان صوت هذا الأنين يَبْعُدُ شيئاً فشيئاً . وإنّ الصبىَّ لَيَنْسَى كلَّ شىء قبل أن ينسَى هذه الأنَّة الأخيرةَ التى أرسلها الفتى نحيلةً ضئيلةً طويلةً ثم سكت . فى هذه اللحظة نهضت أُمُّ الفتى وقد انتهى صبرها ووَهَى[٢]

(١) يتضور : يتلوى .

(٢) وهى : ضعف .



جَلَدُها ، فلم تكد تقف حتى هَوَتْ[1] أو كادت ، وأسندها الرجلان ، فتمالكتْ نَفْسَها وخرجت من الحجرة مُطْرِقةً ساعيةً فى هدوء ، حتى إذا جاوزتها انبعثتْ من صدرها شَكاةٌ لا يذكرها الصبيُّ إلا انخلع لها قلبه انخلاعًا . واضطرب الفتى قليلًا ، ومرّتْ فى جِسْمه رعدةٌ تَبعها سكوتُ الموت . وأقبل الرجلان إليه فهيَّآه وعَصَباه وألقيا على وجهه لِثامًا ، وخرجا إلى الشيخ ثم ذكر أنَّ الصبيَّ مُنْزَوٍ فى ناحية من نواحى الحجرة ، فعاد أحدهما إليه فَجَذَبه جَذْبًا وهو ذاهلٌ ، حتى انتهى به إلى مكان بين الناس فوضعه فيه كما يُوضَعُ الشيءُ .

وما هى إلّاساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ حتَّى هُيِّئ الفتى للدَّفْن وخرج الرجال به على أعناقهم .

فيا لِلْقضاء ! ما كادوا يبلُغون به باب الدار حتى كان أوَّلُ مَنْ لَقِى النَّعْشَ هذا العمّ الشيخَ الذى كان الفتى يتمهَّل الموتَ دقائقَ ليراه .

من ذلك اليوم استقرّ الحزن العميقُ فى هذا الدار ، وأصبح

(١) هوى : سقط .

إظهارُ الابْتهاج أو السرورِ بأيٍّ حادثٍ من الحوادث شيئًا ينبغي أن يتجنَّبه الشبَّان والأطفال جميعًا .

من ذلك اليوم تَعَوَّدَ الشيخ ألَّا يَجلسَ إلى غَدائه ولا إلى عَشائه حتى يذكر ابنه ويَبْكيه ساعةً أو بعضَ ساعة، وأمامه امرأته تُعينه على البكاء ، ومن حوله أبناؤه وبناته يُحاولون تعزيةَ هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئًا ، فيُجْهِشُون جميعًا بالبكاء[1] .

من ذلك اليوم تَعَوَّدتْ هذه الأُسرةُ أن تَعْبُرَ النِّيل إلى مقرِّ الموتى من حين إلى حين ، وكانت من قبل ذلكَ تَعيب الذين يزورون الموتى .

ومن ذلك اليوم تغيَّرت نفسيَّة صبيِّنا تغيُّراً تامًّا . عَرَف اللهَ حقًّا ، وحَرَص على أن يتقرَّب إليه بكلِّ ألوان التقرُّب : بالصَّدقة حينًا ، وبالصلاة حينًا آخر ، وبتلاوة القرآن مرةً ثالثةً . ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوفٌ ولا إشفاق ولا إيثارٌ للحياة ، ولكنَّه كان يعلَم أنَّ أخاه الشابَّ كان من

(١) أجهش بالبكاء : هم به وتهيأ له .

أبناء المدارس ، وكان يُقصِّرُ في أداء واجباته الدينية ؛ فكان الصبيُّ يأتي ما يأتي من ضروب العبادة يريد أن يَحُطَّ عن أخيه بعضَ السيِّئات . كان أخوه في الثامنةَ عَشْرةَ من عمره ، وكان الصبيُّ قد سمع من الشيوخ أنَّ الصلاة والصوم فرضٌ على الإنسان متى بَلَغ الخامسةَ عَشْرةَ . فقدَّر الصبيُّ في نفسه أنَّ أخاه مَدِينٌ لله بالصوم والصلاة ثلاثةَ أعوام كاملة ، وفَرَضَ الصبيّ على نفسه لَيُصَلِّيَنَّ الخمسَ في كلِّ يوم مرَّتين : مرةً لنفسه ومرةً لأخيه، ولَيَصُومَنَّ من السنة شهرين : شهراً لنفسه وشهراً لأخيه ، ولَيَكْتُمَنَّ ذلك عن أهله جميعًا ، ولَيَجْعَلَنَّ ذلك عهداً بينه وبين الله خاصَّة ، ولَيُطْعِمَنَّ فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يدُه من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذَ بحظِّه منه . وشهد الله لقد وَفَى الصبيُّ بهذا العهد أشهراً ، وما غيَّر سيرته هذه إلَّا حين ذهب إلى الأزهر .

من ذلك اليوم عَرَفَ الصبيُّ أرَقَ اللَّيل؛ فكم أنفق سوادَ الليل كاملًا يفكِّر في أخيه أو يقرأ سورةَ الإخلاص آلافَ المرات ، ثم يهَبُ ذلك كله لأخيه، أو يَنْظِم شعراً على نحو هذا

الشعر الذى كان يَقْرَؤه فى كُتبِ القَصَص يذكر فيه حُزْنه وألمه لفقد أخيه ، معنياً بألّا يَفرُغَ من قصيدةٍ حتى يُصَلِّى فى آخرها على النبىّ ، واهباً ثوابَ هذه الصلاةِ لأخيه .

نعم ! ومن ذلك اليوم عرفَ الصبىُّ الأحلامَ المُروِّعة ؛ فقد كانت علّة أخيه تتمثّل له فى كلّ ليلة. واستمرّت الحالُ كذلك أعواماً . ثم تقدَّمتْ به السنُّ ، وعمل فيه الأزهر عَمَلَه ، فأخذتْ عِلّةُ أخيه تتمثّل له من حين إلى حين . وأصبح فتًى ورجلاً ، وتَقَلَّبتْ به أطوارُ الحياة ، وأنه لعلى ما هو عليه من وَفاءٍ لهذا الأخ ، يذكُره ويراه فيما يرى النائم مرةً فى الأُسبوع على أقلّ تقدير .

ولقد تَعزَّى عن هذا الفتى إخوته وأَخَواته ، ونَسِيه مَنْ نسيه من أصحابه وأترابه ، وأخذتْ ذكراه لا تزور أباه الشيخ إلا لِمامًا . ولكنَّ اثنين يَذْكرانه دائمًا ، وسيذكرانه أبَدًا أوَّلَ الليل من كلّ يوم : هما أُمّه وهذا الصبىُّ .

١٩

« أمَّا فى هذه المرَّة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك ، وستُصْبِحُ مُجاوراً، وستجتهد فى طَلَب العلم. وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً ، وأراك من علماء الأزهر ، قد جلستَ إلى أحد أَعْمِدته ومِنْ حولك حَلقةٌ واسعةٌ بعيدةُ المدى . »

قال الشيخ ذلك لابنه آخِرَ النهار فى يوم من خريف سنة ١٩٠٢ ، وسمع الصبيُّ هذا الكلام فلم يُصَدِّق ولم يُكَذِّب، ولكنَّه آثر[1] أن ينتظر تصديقَ الأيام أو تكذيبَها له . فكثيراً ماقال له أبوه مثلَ هذا الكلام، وكثيراً ما وعده أخوه الأزهريّ مثلَ هذا الوعد ، ثم سافر الأزهرى إلى القاهرة ، ولبث الصبيّ فى المدينة يَتَرَدَّد بين البيت والكتَّاب والمحكمة ومجالس الشيوخ .

وفى الحق أنَّه لم يفهم لماذا صدَّق وَعْدَ أبيه فى هذه السنة؛ فقد أخبر الصبيّ ذاتَ يومٍ أنه مسافرٌ بعدَ أيام . وأقبل يومُ

(١) آثر : فضل .



الخميس، فإذا الصبي يرى نفسه يتأهَّب للسفر حقًّا، وإذا هو يرى نفسَه في المحطة ولمَّا تشرقِ الشمس. وهو يرى نفسه جالساً القُرْفُصاء مُنكَّسَ الرأس كئيبًا محزونًا، ويسمع أكبرَ إخوته يَنْهرُه في لُطفٍ قائلًا له: لا تُنَكِّسْ رأسك هكذا، ولا تأخُذْ هذا الوجهَ الحزين فتُحْزِنَ أخاك. ويسمع أباه يُشَجِّعه في لطف قائلًا: ماذا يُحْزِنك؟ أَلستَ رجلًا؟ أَلستَ قادراً على أن تُفارق أُمَّك؟ أم أنت تُريد أن تلعب! ألم يَكْفِك هذا اللعبُ الطويل؟!

شهد الله ما كان الصبيُّ حزينًا لِفراق أُمِّه. وما كان الصبيُّ حزينًا لأنه لن يلعب، إنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالكَ من وراء النِّيل كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيراً ما فكر في أنه سيكون معهما في القاهرة تلميذاً في مدرسة الطب. كان يذكر هذا كلَّه فيَحْزَن، ولكنه لم يَقُلْ شيئًا ولم يُظْهِرْ حُزْنًا، وإنَّما تكلَّف الابتسامَ. ولو قد أرسلَ نَفْسَه مع طبيعتها لبكى ولأبكى مِنْ حوله أباه وأخَوَيه.

وانطلق القِطار ومضتْ ساعاتٌ، ورأى صاحبُنا نفسَه في القاهرة بين جماعةٍ من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه يُحَيُّوه، وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام.

انقضى هذا اليوم ، وكان يومُ الجمعة ، وإذا الصبيُّ يرى نفسَه في الأزهر للصلاة . وإذا هو يسمَع الخطيبَ شيخًا ضخمَ الصوت عاليه ، فَخْمَ الرّاءات والقافات ، لا فرْقَ بينه وبين خطيب المدينة إلّا فى هذا . فأمّا الخطبة فهى ما كان تعوّد أن يسمَع فى المدينة . وأمّا الحديث فهو هو . وأمّا النعت فهو هو . وأمّا الصلاة فهى هى ؛ ليست أطولَ من صلاة المدينة ولا أقصرَ .

وعاد الصبيّ إلى بيته ، أو قلْ إلى حجْرة أخيه ، خائبَ الظن بعضَ الشيء . وسأله أخوه : ما رأيُك فى تجويد القرآن ودرس القراءات ؟ قال الصبيّ : لستُ فى حاجة إلى شيء من هذا . فأمّا التجويد فأنا أُتقْنه . وأمّا القراءات فلست فى حاجة إليها . وهل درستَ أنت القراءات ؟ أليس يكفينى أن أكونَ مثلَك ؟ إنما أنا فى حاجة إلى العلم ، أُريد أن أدْرُسَ الفقه والنحوَ والمنطق والتوحيد .

قال أخوه : حَسْبُك ! يكفى أن تدرس الفقه والنحو فى هذه السنة .

وكان يومُ السبت ، فاستيقظ الصبى مع الفجر ، وتوضّأ وصلّى ، ونهض أخوه فتوضأ وصلى كذلك ، ثم قال له : ستذهب

معى الآن إلى مسجد كذا ، وستحضر درساً ليس لك وإنما هو لى ، حتّى إذا فرَغنا من هذا الدّرْس ذهبتُ بك إلى الأزهر ، فالتمست لك شيخاً من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم . قال الصبىّ : وما هذا الدرس الذى سأحضُرُه ؟ قال أخوه ضاحكا : هو دَرْسُ الفقه وهو ابن عابدين على الدُّرّ ، قال ذلك يملأ به فَمَه. قال الصبىّ : ومَنِ الشيخُ ؟ قال أخوه : هو الشيخ... وكان الصبى قد سمِع اسمَ الشيخ . . . ألفَ مرّة ومرّة فقد كان أبوه يذكر هذا الإسم ، ويفتخر بأنه عَرَف الشيخَ حين كان قاضيًا للإقليم . وكانت أُمّه تذكر هذا الإسم ، وتذكر أنها عَرَفت امرأته فتاةً هوجاء جِلفةً ، تتكلّف زِىّ أهل المدن وماهى من زِىّ أهل المُدُن فى شىء . وكان أبو الصبىّ يسأل ابنه الأزهرىّ كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه وكان ابنه الأزهرى يُحدِّثه عن الشيخ ومكانته فى المحكمة العليا وحَلْقته التى تُعَدّ بالمئات . وكان الصبىّ يُلحُّ على ابنه الأزهرى فى أن يَقرَأ كما كان يقرأ الشيخ، فيُحاول الفتى تقليدَه ، فيضحَك أبوه فى إعجاب وإكبار . وكان أبو الصبىّ يسأل ابنَه : أيَعْرِفك الشيخ ؟ فيُجيب الفتى : وكيف لا ! وأنا ورِفاقى من أخصّ

تلاميذه وآثَرهم[١] عنده ! نحضُر درسَه العام ثم نحضُر عليه درساً خاصًّا فى بيته، وكثيراً ما نتغدَّى لِنَعْمَلَ معه بعد ذلك فى كتبه الكثيرة التى يُؤَلِّفها . ثم يمضى الفتى فى وصف بيت الشيخ وحُجْرة استقباله ودار كتبه ، وأبوه يسمَع ذلك مُعْجَبًا ، حتى إذا خرج إلى أصحابه قصَّ عليهم ما سمِع من ابنه فى شىء من التِّيه والفخار .

كان الصبىُّ إذن يعرف الشيخ ، وكان سعيداً بالذِّهاب إلى حَلْقته والاِستماعِ له . وكم كان مبتهجاً حين خَلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرُّخام ثم على هذا البِساط الرّقيق الذى فُرِش به المسجد ! وكم كان سعيداً حين أخذ مكانه فى الحَلْقة على هذا البِساط إلى جانب عمود من الرُّخام ، لَمَسه فأحَبَّ مَلاسَتَه ونُعومته ، وأَطال التفكير فى قول أبيه : « إنى لأرجو أن أعيش حتَّى أرى أخاك قاضيًا وأراك صاحبَ عمود فى الأزهر » . وفيما هو يفكِّر فى هذا ويتمنَّى أن يَمَسَّ أعمدة الأزهر ليرى أهى كأعمدة هذا المسجد ، ولِلطلّاب مِنْ حولِه دَوِىٌّ غريبٌ، أحسَّ أنّ هذا الدوىّ يَخفُت ثم ينقطع ، وغَمَزه

---

(١) آثرهم عنده : أكرمهم وأفضلهم .

أخوه بيده قائلًا فى صوت خافت : لقد أقبل الشيخ . اجتمعت شخصيَّة الصبيِّ كلها حينئذ فى أذنيه وأنصت . ماذا يسمع ؟ يسمع صوتًا خافتًا هادئًا رزينًا مِلْؤُه شيء قُلْ إنه الكِبْر ، أو قُلْ إنه الجلال ، أو قلْ إنه ما شئت ، ولكنه شيء غريب لم يحبّه الصبي . ولبث الصبيُّ دقائقَ لا يُميِّز مما يقول الشيخ حرفًا . حتى إذا تعوَّدتْ أذناه صوتَ الشيخ وصَدَى المكانِ سَمِع وتبيَّن وفهِم . وقد أقْسَمَ لى بعد ذلك أنه احتقرَ العلمَ منذ ذلك اليوم . سَمِع الشيخ يقول : « ولو قال لها أنت طَلَاقٌ أو أنت طَلَامٌ أو أنت طَلَالٌ أو أنت طَلَاةٌ ، وَقَع الطَّلاقُ ولا عِبْرةَ بتغيُّر اللفظ » . يقول ذلك مُتَغَنِّيًا به مُرَتِّلًا له ترتيلًا فى صوت لا يخلو من حَشْرَجةٍ ، ولكنَّ صاحبه يحتال أن يجعله عَذبًا . ثم يَخْتِم هذا الغناءَ بهذه الكلمة التى أعادها طوالَ الدَّرْس : « فاهم يا أدَع » . وأخذ الصبيُّ يسألُ نفسه عن « الأَدَع » هذا ما هو . حتى إذا انصرفَ عن الدرس سأل أخاه : ما الأدع ؟ فقَهْقَه أخوه وقال : الأَدَعُ الجدَعُ ، فى لغة الشيخ .

ومضى به بعد ذلك إلى الأزهر ، فقدَّمه إلى أستاذه الذى علّمه مبادئ الفقه والنحو سنة كاملة .

إنكِ يا ابنتي لَساذجةٌ سليمةُ القلبِ طَيِّبةُ النَّفْسِ . أنتِ في التاسعةِ من عُمْرِكِ ، في هذه السِّنِّ التي يُعْجَبُ فيها الأطفال بآبائهم وأُمَّهاتهم ، ويَتَّخِذُونهم مُثُلًا عُلْيَا في الحياة : يتأثّرونهم[1] في القول والعمل ، ويُحاولون أن يكونوا مِثْلَهم في كل شيء ، ويُفاخرون بهم إذا تحدَّثوا إلى أقرانهم أثناء اللَّعب ، ويُخَيَّلَ إليهم أنَّهم كانوا أثناءَ طُفولتهم كما هُمُ الآنَ مُثُلًا عُلْيَا يَصْلُحون أن يكونوا قُدْوَةً حَسَنةً وأُسْوةً صالحةً .

أليس الأمر كما أقول ؟ ألستِ تَرَيْنَ أنَّ أباكِ خيرُ الرجالِ وأكرمهم ؟ ألستِ ترين أنه قد كان كذلك خيرَ الأطفالِ وأنبلَهم ؟ ألستِ مقتنعةً أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً مما تعيشين ؟ ألستِ تُحِبِّين أن تعيشي الآن كما كان يعيش أبوكِ حين كان في الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإنَّ أباكِ يَبْذُلِ

(١) تأثره : تبع أثره .

من الجَهْد ما يَمْلك وما لا يَمْلك ، ويتكلف من المَشَقَّة ما يُطيق وما لا يطيق ، لِيَجْنُبكِ حياتَه حين كان صبيًّا .

لقد عرفتُه يا ابنتى فى هذا الطَّوْر من أطوار حياته . ولو أنّى حدّثتك بما كان عليه حينئذ لَكَذَّبتُ كثيراً من ظنِّك ، ولَخَيَّبتُ كثيراً من أَمَلِك ، ولفتحتُ إلى قلبك السَّاذَج ونَفْسك الْحُلْوة باباً من أبواب الحُزْن ، حَرامٌ أن يُفْتَحَ إليهما وأنت فى هذا الطور اللذيذ من الحياة . ولكنِّى لن أُحَدِّثك بشىء مما كان عليه أبوك فى ذلك الطور الآن . لن أُحَدِّثك بشىء من هذا حتى تتقدَّم بك السنُّ قليلًا ، فتستطيعين أن تَقْرَئى وتَفْهَمى وتَحْكُمى ، ويومئذ تستطيعين أن تَعْرِفى أنَّ أباكِ أَحَبّكِ حقًّا ، وجَدَّ فى إسعادك حقًّا ، ووُفِّق بعضَ التوفيق لِأَنْ يَجْنُبَكِ طفولتَه وصباه .

نعم يا ابنتى ! لقد عرفتُ أباكِ فى هذا الطور من حياته . وإنى لأعرف أنَّ فى قلبك رِقّةً وليناً . وإنى لأخشى لو حدَّثتك بما عرفتُ من أمر أبيك حينئذ أن يَمْلكَكِ الإشفاق وتأخُذَكِ الرأفةُ فتُجْهِشى بالبكاء .

لقد رأيتك ذاتَ يوم جالسةً على حِجْر أبيك وهو يَقُصُّ عليكِ قصَّة « أوديب مَلِكاً » وقد خرج من قَصْره بعد أن فَقَأَ عينيه لا يدرى كيف يسير ، وأقبلت ابنته « أنتيجون » فقادتْه وأرشدته . رأيتُك ذلك اليومَ تسمعين هذه القصة مبتهجةً من أوَّلها ، ثم أخذ لونك يتغيَّر قليلاً قليلاً وأخذتْ جَبْهَتَك السَّمْحَةُ تَرْبَدُّ(١) شيئًا فشيئًا . وما هى إلا أنْ أجهشتِ بالبكاء وانكببتِ على أبيك لثْمًا وتقبيلاً ، وأقبلتْ أُمُّك فانتزعتْكِ من بين ذراعيه ، وما زالتْ بك حتى هدأ رَوْعُك . وفَهِمتْ أُمُّك وفَهِم أَبوك وفَهِمتُ أنا أيضًا أَنَّك إنَّما بكيتِ لأنك رأيتِ أوديب الملك كأبيك مكفوفًا لا يُبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده ، فبكيتِ لأبيك كما بكيت « لأوديب » .

نعم ! وإنى لأعرف أَنَّ فيك عَبَثَ الأطفال وميْلَهم إلى اللهو والضَّحِك وشيئًا من قَسْوتهم ، وإنى لأخشى يا ابنتى إنْ حَدَّثتُك بما كان عليه أبوك فى بعض أطوار صِباه أن

(١) تربد : تتغير وتعبس .

تَضْحَكي منه قاسيةً لاهيةً . وما أُحِبُّ أَن يَضْحَكَ طفلٌ من أبيه ، وما أحبُّ أن يَلْهوَ به أو يقسوَ عليه . ومع ذلك فقد عرفتُ أباكِ في طور من أطوار حياته أستطيع أن أُحدِّثك به دون أن أُثير في نفسك حزناً ، ودون أن أُغريك بالضحك أو اللهو .

عرفته في الثالثةَ عَشْرَةَ من عُمْره حين أُرْسِلَ إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر ، إنْ كان في ذلك الوقت لَصَبِيَّ جِدٍّ وَعَمَلٍ[1]. كان نحيفاً شاحِبَ اللَّونِ مُهْمَلَ الزِّيِّ أقرب إلى الفقْر منه إلى الغِنَى ، تَقْتَحِمه[2] العين اقتحامًا في عَباءته القَذِرة وطاقيَّته التي استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفي هذا القميص الذي يَبِينُ من تحت عَباءته وقد اتّخذ ألوانًا مختلفةً من كثرة ما سَقَط عليه من الطعام ، وفي نَعْلَيْه الباليتين المُرَقَّعتَيْن . تقتحمه العين في هذا كلِّه ، ولكنها تبتسم له حين

(١) أي إنه كان في ذلك الوقت صبي جد وعمل . فـ « إن » هي المؤكدة وقد خففت بالتسكين . وإذا خففت بطل عملها ولكن معناها وهو التوكيد باق ، وتثبت لام في الجملة بعدها لتدل على ذلك . ومن ذلك في القرآن « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك » أي أنهم كادوا يفتنونك .

(٢) تقتحمه العين : تحتقره وتزدريه .

تراه على ما هو عليه من حال رَثَّةٍ[١] وبَصَرٍ مكفوفٍ ، واضحَ الجبين مبتسم الثغر مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خُطاه ولا يَتَرَدَّد في مِشْيته ، ولا تظهَر على وجهه هذه الظلمةُ التي تَغْشَى[٢] عادةً وجوهَ المكفوفين . تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتَلْحَظهُ في شيءٍ من الرِّفْق ، حين تراه في حَلْقة الدرس مُصْغِياً[٣] كلّه إلى الشيخ يلتهم كلامَه التهاماً ، مبتسماً مع ذلك لا مُتألِّماً ولا مُتبَرِّماً[٤] ولا مُظْهِراً مَيْلاً إلى لَهْوٍ ، على حين يلهو الصِّبيان من حوله أو يَشْرَئبّون[٥] إلى اللَّهْو .

عَرفته يا ابنتي في هذا الطور . وكم أُحِبُّ لو تعرفينه كما عرفتُه ، إذنْ تَقْدُرين ما بينك وبينه من فرق . ولكن أَنَّى لكِ هذا وأنتِ في التاسعةِ من عمركِ تَرَيْنَ الحياةَ كلها نَعيماً وصَفْواً !

عرفته يُنْفِق اليومَ والأُسبوع والشهر والسنةَ لا يأكل

(١) حال رثة : سخيفة . (٢) تغشى : تغطى .
(٣) مصغياً : مميلا أذنيه للاستماع .
(٤) متبرماً : متضجراً .
(٥) اشرأب : رفع رأسه ومد عنقه لينظر . ويعنى هنا يتطلعون .

إلا لَوْنًا واحداً ، يأْخُذ منه حَظَّه فى الصباح ، ويأخذ منه حظَّه فى المساء ، لا شاكياً ولا مُتَبَرِّمًا ولا مُتَجَلِّداً ، ولا مُفكِّراً فى أنَّ حالَه خليقةٌ بالشكوى . ولو أخذتِ يا ابنتى من هذا اللون حظًّا قليلاً فى يوم واحد لأشفقتْ أُمُّك ولقَدَّمتْ إليك قَدَحاً من الماء المَعْدَنىِّ ، ولانتظرتْ أن تدعو الطبيب . .

لقد كان أبوك يُنفق الأُسبوع والشهر لا يعيش إلاّ على خبز الأزهر . ووَيْلٌ للأَزهريين من خبز الأزهر ! إن كانوا[1] لَيَجِدون فيه ضُروباً من القَشِّ وألوانًا من الحَصَى وفنونًا من الحَشَرات .

وكان يُنفق الأُسبوع والشهر والأشهر لا يَغْمِس هذا الخبز إلا فى العَسَل الأسود ، وأنتِ لا تَعرِفين العسلَ الأسود ، وخيرٌ لك ألاّ تعرفيه .

كذلك كان يعيش أبوك جادًّا مبتسماً للحياة والدروس ، محروماً لا يكاد يشعرُ بالحِرْمان . حتَّى إذا انقضتِ السنةُ وعاد

---

(١) إن ، هى المؤكدة المخففة . أى إنهم كانوا يجدون . . .

إلى أبويه ، وَأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟ أخَذ يَنْظِم لهما الأكاذيبَ كما تَعوَّدَ أن ينظم لك القصص ، فيُحَدِّثهما بحياةٍ كلها رَغَدٌ ونعيم ، وما كان يدفَعه إلى هذا الكذب حبُّ الكَذِب ، إنما كان يَرْفُق بهذين الشيخين ويكرَه أن ينبئهما بما هو فيه من حِرْمان . وكان يرفُق بأخيه الأزهرىّ ، ويكرَه أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن . كذلك كانت حياةُ أبيك فى الثالثةَ عَشْرَةَ من عمره .

فإن سألتِنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن ، وكيف أصبح شَكلُه مقبولاً لا تقتحمه العين ولا تزدريه ، وكيف استطاع أن يُهيِّئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياةٍ راضية ، وكيف استطاع أن يُثير فى نفوس كثيرٍ من الناس ما يُثير من حَسَدٍ وحِقْدٍ وضَغِينة، وأنْ يثير فى نفوس ناس آخرين ما يُثير من رضاً عنه وإكرام له وتشجيع — إن سألتِ كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال ، فلستُ أستطيع أن أُجيبك ! وإنما هناك شخصٌ آخر هو الذى يستطيع هذا الجوابَ . فسَلِيهِ يُنْبِئْكِ .

أتعرفينه ؟ انظري إليه ! هو هذا الملَكُ القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيتِ لتستقبلى الليلَ فى هدوءٍ ونومٍ لذيذ ، ويحنو على سريرك إذا أصبحتِ لتستقبلى النهارَ فى سرور وابتهاج . ألستِ مدينةً لهذا المَلَكِ بما أنتِ فيه من هدوء الليل وبهجة النهار ؟ !

لقد حنا يا ابنتى هذا المَلَكُ على أبيك ، فبدَّله من البؤس نعيماً ، ومن اليأسِ أملاً ، ومن الفقْرِ غِنًى ، ومن الشقاء سعادةً وصفْواً .

ليس دَيْنُ أبيك لهذا المَلَكِ بأقلَّ من دَيْنِك . فلنتعاون يا ابنتى على أداء هذا الدَّين ؛ وما أنتما بالغَين من ذلك بعضَ ما تُريدان !

طه حسين



ص
٢٠